وزارة التربية والتعليم

مبادئ علم الاجتماع

الجزء الأول

تأليف

الدكتور حسن الساعاتي
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
بجامعة الإسكندرية

الدكتور عبد اللطيف فؤاد ابراهيم
المدرس بمعهد التربية للمعلمين
بجامعة عين شمس

حنا رزق
مدير قسم الخدمة العامة
بالجامعه الأمريكية بالقاهرة

صالح الشبكشي
المدرس بالمعهد العالى
للخدمة الاجتماعية للفتيات

دار مصر للطباعة
٣٧ (٤) شارع كامل صدقى "الفجالة"

وزارة التربية والتعليم

مبادئ علم الاجتماع

الجزء الأول

تأليف

الدكتور حسن الساعاتي
الأستاذ المساعد بكلية الآداب
بجامعة الإسكندرية

الدكتور عبد اللطيف فؤاد ابراهيم
المدرس بمعهد التربية للمعلمين
بجامعة عين شمس



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

إن مادة « مبادئ علم الإجتماع » مادة جديدة فى التعليم الثانوى . وقد أضيفت إلى مواد الدراسة فى القسم الأدبى ؛ لأنها تكمل الدراسات الاجتماعية التى يتلقاها الطالب فى هذا القسم . كما أنها ، إلى جانب ذلك ، أساس قوى لربط هذه الدراسات بعضها ببعض ؛ لا سيا أن موضوعاتها المختلفة تدور حول الإنسان ، ونشاطه ، وتفكيره ، وإنتاجه الذهنى ، وتاريخه ، والعلاقات المتبادلة بينه وبين البيئة التى يعيش فيها .

وقد سلكنا فى تأليف هذا الكتاب ، وهو الجزء الأول ، مسلكا سهلا ، فبسطنا موضوعاته ، ولم نشر إلى النظريات الاجتماعية المعقدة ، كما أننا لم نشر إلى المؤلفين الذين ظهروا فى ميدان هذا العلم . وإنما ركزنا اهتمامنا فى توضيح المبادئ الأساسية لعلم الاجتماع ، الذى يدرس فى المرحلة الثانوية لأول مرة فى تاريخ التعليم المصرى . وقد كان [illegible] مبادئ علم الإجتماع الأساسية فى توضيح [illegible] اشتركنا فى وضع [illegible]

[illegible] وتاريخ علم الاجتما[illegible]

[illegible] مرحلة متقدمة فى تدريس [illegible]

[illegible] منها .

[illegible] أن يوفقنا إلى ما فيه صالح وطننا .

القاهرة فى يونية ١٩٥٥

تعريف بعلم الاجتماع

علم الاجتماع والعلوم الأخرى :

إن علم الاجتماع، كعلم، يعد من نواح كثيرة أحدث العلوم الاجتماعية . ولذلك نجده
فاد من العلوم الاجتماعية الأخرى كالتاريخ ، والجغرافيا ، والاقتصاد ، والعلوم
ية ، وعلم النفس الاجتماعي ؛ كما أنه قد أفادها بدوره .

وكما استفاد علم الاجتماع من العلوم الاجتماعية ، الأخرى ، فإنه قد أفاد أيضا
من العلوم الطبيعية وطرق البحث فيها ، تلك الطرق التي وصلت إلى درجة عظيمة
من الدقة والإتقان .

ميدان علم الاجتماع وأهدافه :

يدرس علم الاجتماع الإنسان كفرد في جماعة ، كما يدرس الجماعة كوحدة
كذا يتدرج في الدراسة من الجماعات الصغيرة إلى الجموع المتوسطة
اسة المجتمع

تماع الناس كأفراد في جماعات ، والجماعات كوحدات
كبير من هذه الجماعات، يعنى بدراسة علاقات الأ
بهم ، والعوامل التي تحدد هذه الاتصالات و
كله من آثار في الجماعات من ناحية ، وفي ا

وليس بخافٍ أن الدول المتحضرة قد أصبحت تولى إصلاح المجتمعات عناية كبيرة. ولكنْ ، لا يمكن إصلاح المجتمعات بطريقة سليمة ما لم تدرس دراسة علمية تمكننا من فهم طبيعة الجماعات التى تكونها ، وكشف حقائق مختلفة خاصة بها ومتعلقة فى الوقت ذاته بعلاقات الأفراد بعضهم ببعض فى هذه الجماعات.

ولا يختلف علم الاجتماع فى هدفه عن العلوم الأخرى ؛ فهو علم جديد يرمى إلى تنمية النظريات واستخلاص القوانين العلمية ، وتحسين الطرائق الفنية التى يمكن أن تفيدنا فى فهم المجتمع وما يجرى فيه من علاقات اجتماعية مختلفة ، ويمكن أن تساعدنا فى تغيير سلوك الجماعات واتجاهاتهم . والهدف النهائى لذلك كله هو تحسين الأحوال التى يعيش فيها الناس فى أى مجتمع .

الباب الأول

الفرد فى المجتمع

الفرد فى المجتمع

الفرد والجماعة :

لو تدبرت معيشة الناس لوجدتهم لا يعيشون فرادى ، أى لا ينعزل الواحد منهم عن الآخر عزلة تامة ؛ و إنما يعيشون فى تجمعات تختلف فى كبرها وصغرها باختلاف عدد أفرادها . ويتكون أى تجمع بشرى من عدد من الأفراد يتعامل بعضهم مع بعض ، وتنشأ بينهم علاقات اجتماعية مختلفة . والجماعة نوع من التجمع البشرى مكون من فردين أو أكثر . فوجود الأفراد إذن لازم لتكوين الجماعات .

الإنسان اجتماعى :

وكما لا يتسنى وجود الجماعة إلا بوجود الأفراد ، فكذلك لا يستطيع الفرد أن يعيش كإنسان إلا إذا نشأ فى جماعة من الناس، وتعامل فيها مع غيره من الأفراد ، وتعلم منهم ونقل عنهم ، حتى يصبح واحدا منهم ، و يسهل اندماجه فيهم . وكما يتأثر الفرد بباقى أفراد الجماعة ، فهم بدورهم يتأثرون به ، و بما ينشأ بينه و بينهم من علاقات مختلفة . و يتبين من ذلك أن الفرد والجماعة يعتمد كل منهما على الآخر اعتمادا كليا ، بحيث لا يتسنى وجود أحدهما بدون الآخر .

وأساس التجمع البشرى طبيعة الإنسان التى فرضت عليه أن يكون اجتماعياً ؛ لتتسنى له الحياة والمعيشة كإنسان .

الإنسان فى طفولته :

إن طفولة الإنسان ، التى يعتمد فيها على غيره اعتماداً كلياً ، طويلة جداً إذا قيست بطفولة الحيوانات الأخرى . فالإنسان فى طفولته محتاج إلى من يطعمه ويلبسه ويؤويه ، ويدفع عنه الأذى ، ويرعاه إذا مرض ، ويعلمه كيف يعيش فى الجماعة التى ينشأ فيها ، بحيث لا يشذ فى سلوكه عن أفرادها .

ولو لاحظت حياة طفل حديث الولادة ، وتدبرت أمره ، لوجدته لا يفترق عن الحيوان الحديث الولادة . فالطفل لم تتح له الفرصة بعد لكى يتعامل مع أفراد آخرين ، أو مع جماعة من أى نوع ، حتى يستطيع أن ينقل عنهم ويتعلم منهم اللغة ، وطريقة التفكير ، والمعيشة التى تجعله يندمج فيهم ، ويتمكن من التعامل معهم ؛ لأنه لا يفهم لغتهم وسلوكهم .

ولكن الوليد من بنى الإنسان يختلف عن المولود من الحيوان فى أمر جوهرى يحدد مستقبل حياة كل منهما . فالوليد من بنى الإنسان يولد مزودا عن طريق الوراثة بقدرات عقلية تمكنه من النطق بلغة الإنسان فى سن معينة ، كما تمكنه من التعلم والتدرج فيه ، إلى أن يصل إلى درجة الابتكار والإنشاء . والوليد من البشر يستطيع ، بما حباه الله به من قدرات ، أن يعاشر غيره من الناس ، ويتعامل معهم ، ويخاطبهم ، ويسلك سلوكهم ، ويخضع لأنظمتهم الاجتماعية .. أما الحيوان فيعجز عن النطق ، ولا يستطيع أن يعاشر البشر كإنسان . أو يعيش معهم كفرد منهم ..

وقد أجرى أحد العلماء الأمريكيين تجربة ليتثبت بها من عجز « الحيوان » بالنسبة للإنسان ، فربى مع طفله « دونلد » ، وعمره سبعة أشهر ونصف ، قردة من نوع الشمبانزى عمرها عشرة أشهر سماها « جوا » . واستمرت التجربة تسعة أشهر . وقد راعى فى تربيتهما أن يتساويا فى العناية والرعاية ، وأن يشتركا فى النوم والمأكل واللعب .

فكانت النتيجة أن « جوا » سبقت « دونلد » فى النمو والقوة الجسمية ، واجتازت مرحلة الطفولة المبكرة قبله ، واستطاعت الاعتماد على نفسها فى نواح كثيرة ، كالتسلق والألعاب البهلوانية ونط الحبل ، وتغذيه نفسها بالملعقة وبيدها اليمنى ، كما استطاعت أن تشرب بنفسها من الكوب ، وتفتح الباب . ولم تفق الطفل « دونلد » فى تعلم هذه الأمور فحسب ؛ بل إنها كانت أكثر منه طاعة وتعاونا . ولم تقف مقدرة الشمبانزى الصغيرة عند هذا الحد ؛ بل إنها تعلمت كيف تميز الألوان ، واستطاعت أن تفهم عددا لا بأس به من الكلمات والجمل ؛ ولكنها عجزت عن أمر جوهرى عجزا تاما ، إذ لم تستطع النطق والكلام على الإطلاق . أما « دونلد » فقد استطاع أن يتعلم النطق والكلام ؛ وبخاصة من أمثاله من الأطفال الآخرين . ويرجع الفرق الكبير بينهما إلى أن للطفل استعدادا لتعلم النطق والكلام ، وهو استعداد يمتاز به الإنسان عن الحيوان الذى حرم هذا الاستعداد . وكذلك لا يستطيع الحيوان — مهما كان ذكاؤه ومهارته — أن يتعلم النطق والكلام ، وهما عماد الحياة الاجتماعيه البشرية .

وتستطيع أن تستخلص مما تقدم أن الطفل الحديث الولادة يشبه الحيوان فى أنه كائن عضوى ، يؤدى وظائف خاصة تظهر فى أنواع كثيرة من السلوك الذى لا يمتاز عن سلوك الحيوان فى شىء . فطبيعة الطفل العضوية تشمل شعوره بالجوع والعطش ، وحاجته إلى النوم والحركة ، وتنفسه الهواء ، وهضمه الطعام ، وتخلصه من الفضلات الزائدة . فهذه العمليات العضوية تحفظ كيان الجسم ، وتكون أساساً لحياته ، ويترتب عليها صدور حركات عضوية معينة ، كالمص ، والبلع ، والتبول ، والتبرز ، والسعال ، والقبض بالأصابع ، والدفع بالرجلين ، والتثاؤب ، والرمش ، والعبوس ، والابتسام ، وغير ذلك من الحركات التى يحدثها الطفل . كما أنه تظهر على ملامح وجهه أيضاً علامات الغضب ، والخوف ، والألم ، والسرور . هذه الحركات التى يقوم بها الطفل ، والانفعالات التى تبدو عليه عضوية ، أى لا يتعلمها من أحد ؛ وإنما

يولد مزودا باستعداد للقيام بها . ويشبه الطفل الحيوان فى هذه العمليات العضوية والانفعالات النفسية التى يولد كل منهما معداً بها ؛ ولذلك تسمى الاستعدادات الفطرية أو الطبيعية . ولكن الطفل يمتاز عن الحيوان باستعداد فطرى جوهرى هو القدرة على النطق والكلام ، والتدرج فى مراتب التعلم إلى أن يصل إلى درجة الإنشاء والابتكار والإبداع . ويستطيع — كما ذكرنا — أن يعاشر غيره من الناس ويتعامل معهم تعاملا ينشئ بينه وبينهم علاقات مختلفة .

الفصل الأول

حياة الجماعة ونمو الفرد فيها نمواً اجتماعيا

كيف يكتسب الفرد صفة الاجتماعية :

لكى يكتسب الطفل صفة الاجتماعية يجب أن يعيش فى جماعة من الناس تعلمه اللغة ، وتوجد عنده شعوراً بقيمة الجماعة ، وحرصا على سمعته فيها ، وقبولا لتقاليدها وعاداتها ومعتقداتها ، كما تتكون عنده وعيا بالنظم الاجتماعية السائدة فيها . فالفرد لا يكتسب صفة الاجتماعية ، أى لا يصبح إنسانا يعاشر الناس ويعاشرونه ، إلا إذا عاش فى المجتمع ، وتعامل فيه مع أفراد الجماعات المختلفة التى يتكون منها ، وخضع لنظمه الاجتماعية .

أما إذا لم تتح للطفل الفرصة ليعيش فى مجتمع بشرى ، يشب فيه ويترعرع كبقية أفراده ، فإنه إما أن يموت جوعا أو عطشاً ، أو يفتك به حيوان ضار . وإذا قيض الله له حيوانا يغذيه ويرعاه فإنه ينمو كالحيوان تماما ، مهما كان ذكاؤه واستعداده . فلا يتكلم لغة ما ، لأن أحداً لم يخاطبه ، ولا يعرف دينا ولا عرفا ولا تقاليد ولا معتقدات ، ولا أى شىء يتعلق بحياة الإنسان الاجتماعية .

ولا يعقل أن يجرى العلماء تجربة ليثبتوا بها صواب هذا الرأى ، فيعزلوا طفلا عن سائر البشر منذ ولادته ، ويغذوه بطريقة ما دون أن يتصل به أحد . ولكن هناك حالات وجدت فعلا ، سواء بطريق الصدفة ، أو لأسباب سياسية ، وانعزل

فيها الفرد عن الناس وهو لا يزال رضيعا . ومن هـذه الحالات المعروفة حالة ذلك الأمير الألمانى « كاسبار هاوزر » الذى شاءت الظروف السياسية أن يقصى عن الإمارة وهو رضيع ، فحبس فى كهف مظلم ، ولم يمكن أحد من الاتصال به ، حتى انه لم يكن يرى وجه من كان يقدم له الطعام . وعندما أطلق سراحه كان قد بلغ من العمر سبعة عشر عاما . ولـكنه كان كالطفل الصغير فى عقليته وسلوكه وحركاته . ولما حاول السير فى شوارع مدينة «نورمبرج» عام ١٨٢٨ ، لم يستطع المشى إلا بصعوبة . ولم يكن يعرف من اللغة شيئاً ، كما أنه لم يستطع فهم ما يدور حوله ، أو معرفة ما يراه من أشياء ،أو ما يستعمله الناس من أدوات أو ما يلبسونه من ملابس .

ومن أغرب الحالات التى سجلت حالة تلك الطفلة التى عثر عليها فى الهند عام ١٩٢٠ فى مغارة ذئاب ، وكانت فى الثامنة من عمرها ، وأطلق عليها اسم « كالا » وعاشت بعد ذلك تسع سنوات ، ثم توفيت . وقد سجلت حياتها فى السنوات التسع التى أمضتها فى مجتمع بشرى . فعند العثور عليها كانت لا تعرف لغة ما ؛ بل كانت تحدث أصواتا كعواء الذئاب وكانت تمشى بخفة على يديها ورجليها ، وتجرى بسرعة فائقة كالذئاب . كما كانت تجفل من البشر كأى حيوان غير مستأنس . وكانت تأكل اللحم النىء ، وتنام بالنهار ولا يغمض لها جفن بالليل ، وهكذا كان سلوكها كسلوك الحيوان غير المستأنس . وقد اتبعت فى تعليمها وتربيتها وسائل حديثة ؛ ولـكنها لم تنجح إلا فى تعليمها أبسط القواعد الاجتماعية للسلوك ، كلبس الملابس ، وتناول الغذاء المطهو ؛ كما أنها استطاعت أن تتحدث بشكل مبسط ومحدود . وهكذا ترى أنه فى هذه الحالة بالذات اكتسبت « كالا » صفة الاجتماعية بعد أن عاشت مع جماعة من الناس .

وخلاصة ما تقدم أن الإنسان اجتماعى ، أى لا بد له من أن يعيش فى جماعة من الناس ، لـكى ينقل عنهم السلوك البشرى . فهو يأتى إلى هذا العالم لا حول له ولا قوة ، مزوداً

بقدرات فطرية ، مستعداً للنمو والسلوك كما يسلك البشر . ولكن هذه القدرات لا يمكن أن تظهر وتؤدى وظائفها التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان إلا إذا عاش الإنسان فى جماعة من البشر ، وتأثر بمن يتصلون به من أفرادها ، فنقل عنهم لغتهم وسلوكهم ، وعاداتهم ومعتقداتهم وأساليب تفكيرهم . فمن مهده إلى لحده ، يتكون سلوكه ويتشكل بما يتعرض له من مؤثرات اجتماعية تأتيه من والديه ، وإخوته ، وأخواته ، وأصدقائه ، ورفاقه فى اللعب ، ومدرسيه ، ورجال دينه . وكذلك يتأثر الإنسان بالكتب التى يقرأها ، والصحف التى يتصفحها ، والأفلام التى يشاهدها فى دور السينما ، وبرامج الإذاعة التى يستمع إليها ، وبغير ذلك من مصادر المعرفة . فبدون الاتصال المستمر القوى بالأفراد الآخرين ، لا يتسنى للوليد أن يصبح إنسانا ، أى يسلك سلوك البشر . فالعلاقات الاجتماعية التى تنشأ بينه وبين الأشخاص الذين يتعاملون معه فى مراحل نموه المختلفة ، لا يمكن الاستغناء عنها فى تنمية الفرد وجعله إنساناً يمتاز عن الحيوان .

تكوين الجماعة :

تتكون الجماعة كما ذكرنا من فردين أو أكثر ، توجد بينهما أو بينهم روابط تنشأ فى مدة من الزمن قد تكون طويلة أو قصيرة ، ويكون لهما أو لهم هدف عام . وميل الإنسان إلى الانتظام فى جماعات مختلفة ذات أهداف عامة هو من أهم الظواهر الاجتماعية التى يمتاز بها الإنسان عن الحيوان . حقاً إن الحيوان يعيش فى جماعات ، ولكن هذه الجماعات ليست لها أهداف مشتركة ، كما أنها لا تنمو وتتغير من شكل مبسط إلى آخر مركب معقد كما هى الحال فى الجماعات الإنسانية ، التى يظهر فيها التعاون وتقسيم العمل والتخصص بشكل قوى واضح . فالبشر ينقلون — خلفا عن سلف — مقومات الثقافة : كاللغة ، والعادات ، والتقاليد ، والمعتقدات ، وطرق التفكير ، ومقومات الحضارة : كالمأكل ، والملبس ، والمسكن ، والأدوات التى تستعمل فى الحياة اليومية . فكل جيل يعلم الجيل الذى يليه ، وهذا بدوره يعلم

الجيل الذى يأتى بعده ، وهكذا على مر السنين وتعاقب الأجيال . وهذه ميزة يمتاز بهـا بنو الإنسان عن الحيوان . .

والإنسان إذ ينقل عن أسلافه ، لا يكتفى بمجرد التقليد كما تفعل بعض الحيوانات العليا كالقردة مثلا ؛ بل إنه يتاقى ما يصل إليه من السلف ويهضمه ويشكله ويضيف إليه ، ثم يسلمه إلى الذى يليه بعد التعديل والإضافة .

وتختلف الجماعات من حيث الكبر والصغر ، والتماسك والتفكك . فهناك الأسرة ذات الروابط القوية ، والحزب السياسى ذو الروابط الضعيفة نسبياً ، وهناك عصبة اللعب التى يرتبط فيها الصغار بروابط متينة ، والشركة المساهمة التى تكون الروابط فيها بين الأعضاء محدودة غير قوية . وفى مثل هذه الجماعات وغيرها ، مما ينتمى إليه الفرد فى حياته ، يكون الفرد على اتصال كبير برفاقه من الناس ؛ يقابلهم ويتحدث إليهم ، ويتبادل معهم المنافع والآراء ، ويتعاون معهم أو ينافسهم ، يحبهم أو يكرههم ، يقبل عليهم ويصادقهم أو ينفر منهم ويعاديهم . ولا شك فى أن كل نوع من الاتصال يترك فى الفرد آثاراً خاصة لا يمكن الاستهانة بها مهما كانت ضعيفة كما سنرى فيما بعد .

أثر الجماعة فى الفرد :

كلما كان الفرد صغير السن كانت شخصيته أكثر استعداداً للتأثر بمن يتصلون به ، ويتعاملون معه . ولذلك فإن أثر الأسرة فى شخصية الفرد أقوى وأعمق من أثر أية جماعة أخرى يتعامل معها فى حياته . فالأسرة تغذيه وتكسوه وتؤويه وتعلمه اللغة وكثيراً من آداب المعاملة ، وتعرفه شيئاً عن الدين والعادات ، وتربى فيه وعيا برأى الأفراد الآخرين ، فيعيرهم اهتمامه ، ويحترم شعورهم ، ويقتضى ذلك — فى معظم الأحيان — أن يعدل سلوكه لكى يسهل اندماجه فيهم وانسجامه معهم .

و إذا لاحظت طفلا صغيراً فإنك تجد أنه يتصرف حسب ميوله وأهوائه ، غير عابئٍ برأى من حوله فيه ، أو حكمهم على تصرفاته ؛ لأنه لم يعرف بعد معنى الحياة فى جماعة ، وما تتطلبه من تكييف الفرد لسلوكه ، حتى يعيش فى وئام مع أفرادها . فالطفل فى لعبه ، يحدث جلبة غير مكترث بحاجة من حوله إلى الراحة ، فنوجهه إلى أن هذا السلوك يزعجهم ، لأنهم فى حاجة إلى الهدوء . وفى بعض الأحيان يود أن يتحرر من ملابسه ويخلعها ، فنلفت نظره إلى أن ذلك سلوك غير لائق يجعل الناس يضحكون سخرية منه . كما أننا نعوده بالتدريج العادات التى نراها حسنة فى تناول الطعام ؛ و إذا ما رغب فى مخالفتها ذكرناه بأن هذه المخالفة تثير اشمئزاز الناس الذين تعودوا هذه العادات . وهكذا ننمى فى نفس الطفل تدريجياً حساسية اجتماعية لآراء غيره من أفراد الجماعة التى ينتمى إليها و يتعامل مع أفرادها ، والتى عليه أن يحترم تقاليدها . و إذا لم تتكون هذه الحساسية الاجتماعية عند الفرد ، أى إذا لم يهتم بعادات من يعيش معهم وطريقة حياتهم ، فإنه يعرض نفسه لسخريتهم أو غضبهم وسخطهم .

وهناك بعض الأفعال التى تصدر عن الطفل كتعذيب الحيوان ومعاملة الأطفال الآخرين بقسوة . فيرى أولياء أمره ، أن خير وسيلة لردعه ، أن يحذروه من عقاب الله ، فيقولون له إن هذه الأفعال « حرام » ، وأن الله يعذب من يعذب «الحيوان» ، ومن يعامل زملاءه الصغار بقسوة ، ومن لا يعطف على الضعفاء والمساكين . وهذا بدوره يجعلهم يحدثونه عن الله وقدرته التى تظهر فى مخلوقاته ، وعن بعض أوامره ونواهيه وثوابه وعقابه . وهكذا يعرفونه أصول الدين تدريجياً كى يضبط سلوكه ، أو يحدد تصرفاته و يشكلها وفق ما أمر الله به .

وإذا ما كبر الطفل ، ورأى أهله منه ميلا إلى الاعتداء على حقوق غيره ، كأخذ أدوات فرد آخر أو نقوده ، أو حاول إيذاء غيره ، عرفوه شيئا من القانون الذى تسنه الدولة كى تحافظ على متاع الناس وحقوقهم وأرواحهم ، وعرفوه بالتدريج

أن الخروج على هذا القانون يعد جريمة تعرض فاعلها لعقوبات تتدرج من الغرامة إلى الحبس إلى السجن إلى الأشغال الشاقة إلى الإعدام . فالقانون إذن ضابط اجتماعي ، يضبط سلوك الأفراد ويحدد تصرفاتهم ، ويشكلها حسب النظام العام السائد في المجتمع .

من ذلك يتضح أن الطفل يولد خالي الذهن تماما من القيم الأخلاقية ، كالصواب والخطأ ، واللائق وغير اللائق ، والحلال والحرام ، والحق والواجب . وأن الجماعات المختلفة التي يعيش فيها ويتعامل مع أفرادها هي التي تعرفه كل ذلك . ولا يقف فضل الجماعة على الفرد عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى أمور أخرى بالغة الأهمية . فالجماعة مثلا هي التي تعلم الفرد المهنة التي يستطيع أن يكسب منها عيشه حتى لا يكون عالة على غيره . وفي الجماعات المتأخرة يكون هذا التعليم مبسطا عن طريق التقليد مع شيء من التوجيه والإرشاد ، كما يحدث في الحالات التي تقوم فيها الأسرة بتعليم أبنائها المهنة التي اشتهرت بها ، كالفلاحة أو النجارة أو الحدادة أو أية صناعة من الصناعات التي ما زالت بعض الأسر تعيش عليها وتعلمها أبناءها وهم في سن صغيرة . أما في الجماعات الكبيرة العدد المعقدة النظام ، فان التعليم يكون في المدارس والمعاهد والجامعات في فترات طويلة ، يتخصص الفرد في مراحلها النهائية في ميدان ضيق ، كالهندسة أو التدريس أو المحاماة أو الطب أو أية مهنة من المهن التي أصبحت في المجتمع الحديث تحتاج إلى أن يتوفر الإنسان على دراستها ليتخصص فيها ويستطيع أن يتقنها .

والآن نتساءل : كيف يتسنى للفرد أن يعرف ذلك كله إذا لم تتح له فرصة المعيشة في جماعة والتعامل مع أفرادها ؟

لاشك في أنه لن يستطيع الحياة كإنسان اجتماعي بدون المعيشة في جماعة : فالجماعة إذن لازمة للفرد كما اتضح لك ، لا لتمكنه من الحياة فحسب ، بل لتيسرها

له عن طريق تعريفه اللغة والعادات والتقاليد والدين والقانون وتدريبه على استعمال الماديات الموجودة فى المجتمع من ملابس وأطعمة وأثاث ، وكذلك الأدوات الأخرى التى تستعمل فى تناول الطعام والكتابة والرياضة والتسلية وغيرها . كما أنها تعلمه المهنة التى يستطيع أن يكسب قوته منها .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن الجماعة تنمى شخصية الفرد ، وتؤثر فيها تأثيراً كبيراً . فالجماعة تعطى الفرصة لعقل الفرد كى ينشط وتعطى الفرصة للفرد كى يكتسب خبرات متنوعة ، وذلك عن طريق وسائل التعامل المختلفة التى تتركز حول كل أنواع الأخذ والعطاء التى تحدث بينه وبين غيره من أفراد الجماعة ، سواء أكانت هذه الجماعة أسرة أم مدرسة أم عصبة لعب أم محل عمل أم جمعية دينية أو ثقافية أو اجتماعية . وتنشأ عن هذا التعامل ، كما أشرنا من قبل ، ألوان مختلفة من العلاقات والروابط الاجتماعية كالحب والكره ، والتآلف والتنافر ، والاقتراب والتباعد ، والمودة والقطيعة . ويتأثر الفرد بهذه العلاقات والروابط ؛ لأنه يكيف نفسه ويشكل شخصيته تبعاً لما تتطلبه ظروف التعامل بين أفراد الجماعات المختلفة التى يعيش فيها . فهو يقلد شخصاً من الأشخاص ويعده مثلا أعلى له ينسج على منواله ، ويترسم خطاه فى كل أعماله ، أو يتقمص شخصيته ويحاكيه فى حركاته ولبسه ، وربما طريقة حديثه . ويخشى فرداً من الأفراد ويرهبه ويكون تابعاً له يأتمر بأوامره ويلبى نداءه وينصت لآرائه . وينافس زميلا له أو يتعاون معه ، ويوحى إلى مجموعة من رفاقه فتتبعه وتثق فيه . وهكذا تتأثر شخصية الفرد بأنواع التعامل التى تنشأ بينه وبين الأفراد الآخرين فى الجماعات المختلفة . وينجم عن تفاعل كل هذه الدوافع فى نفس الفرد اتجاهات معينة تجعله يختلف عن غيره من الأفراد ، وتجعل له سلوكا خاصا تبنى عليه علاقاته بأفراد الجماعة .

الفصل الثانى

الجماعات المختلفة التى يتكون منها المجتمع

اتضح لك من دراسة المجتمع المصرى أن المجتمع يتكون من جماعات مختلفة نشأ عن تزايد حاجات الأفراد تبعاً لتعقد الحياة الاجتماعية . وأهم هذه الجماعات : الجماعة الأسرية التى تشمل الزوجين والأطفال عادة ، والجماعة الثقافية كالمدرسة وما يشابهها من المعاهد العلمية ، والجماعة الترفيهية كعصبة اللعب والنادى وفريق الكشافة ، والجماعة الدينية وتشمل رجال الدين على اختلاف مناصبهم ، والجماعة المهنية التى تشمل كل من له علاقة بالإنتاج على اختلاف أنواعه وتسويقه و بيعه ، وكذلك المشتغلين بالحرف والمهن والخدمات الشخصية ، والجماعة العسكرية وتشمل الضباط وصف الضباط والجنود ، والجماعة القضائية وتشمل القضاة ووكلاء النائب العام والمحامين ، والجماعة السياسية والإدارية وتشمل الأحزاب السياسية والهيئتين التشريعية والتنفيذية . ولما كانت لكل جماعة من هذه الجماعات وظيفة معينة تؤديها فى المجتمع باعتبارها وحدة ذات طابع خاص ، يمكننا أن نطلق على تقسيم المجتمع إلى جماعات من هذا النوع ، اصطلاح « التقسيم الوظيفى للجماعات » ، وفيما يلى أهم الجماعات التى يتكون منها المجتمع :

(١) الأسرة :

للأسرة وظائف بيولوجية واجتماعية واقتصادية ونفسية سوف نفصلها فى الباب الرابع. ولقد بينا فى الفصل السابق الدور الذى تقوم به الأسرة فى تربية الأطفال وإكسابهم الصفات التى تجعلهم يمتازون عن الحيوانات الأخرى والتى تجعلهم يستطيعون التعامل

مع الناس . وتتكون الأسرة عادة من الزوجين وطفل أو أكثر.. أما الأسرة التى لا تنتج أطفالا وتقتصر على الزوجين فقط ، فإنها تعد أسرة ناقصة فى تركيبها ؛ لأن العلاقات الاجتماعية التى تنشأ فيها تكون محدودة وفى نطاق ضيق ، ولأنها خالية من الأطفال وما ينجم عن وجودهم من علاقات اجتماعية تتكون بين بعضهم البعض من ناحية ، و بينهم و بين والديهم من ناحية أخرى . ومهما قل عدد أفراد الأسرة فإنها تؤدى وظائف على جانب كبير من الأهمية فى المجتمع .

(ب) الجماعة الثقافية :

الجماعة الثقافية متعددة الصور فمنها : المدارس ، والمعاهد ، والجامعات على اختلاف أنواعها . ويمكن حصر وظيفتها الأساسية فى تعليم من يلتحقون بها ألوانًا من المعرفة حسب سياسة مرسومة يضعها المتخصصون فى التعليم . وللمدارس والمعاهد والجامعات إلى جانب هذه الوظيفة الأساسية وظيفة أخرى ثانوية إلا أنها بالغة الأهمية ، فهى تسهم فى تربية الفرد وتنمية شخصيته وتعويده العادات الحسنة . ولا ينكر أحد ما للمدرسين والأساتذة من فضل وأثر فى تثقيف الطالب وتهذيبه وصقله .

ومن الهيئات الثقافية أيضاً : الإذاعة والصحافة والخيالة (السينما) والجمعيات العلمية ؛ لأن كل هيئة منها تؤدى فى المجتمع وظيفة ثقافية تتلخص فى تنوير الأفراد وتزويدهم بالمعلومات والخبرات ليرقى تفكيرهم ، ويرتفع مستوى معيشتهم ، وتتحسن معاملاتهم.

(ح) الجماعة الترفيهية :

تؤدى الجماعة الترفيهية وظيفتين أساسيتين :

(١) الوظيفة الأولى : هى شغل وقت فراغ الأفراد على اختلاف أعمارهم بشتى

الأعمال والألعاب والرياضة المسلية ، فى عصبة اللعب أو فى الأندية والمعسكرات والمنظمات المختلفة .

(٢) الوظيفة الثانية : هى تربية الفرد وتنمية شخصيته وإكسابه خبرات تفيده فى حياته .

وتتكون العصبة من رفاق يشتركون فى الألعاب المختلفة ، ويعلم بعضهم بعضا قواعد كل لعبة ، كلعبة « البلى » و « المساكة » و « السيجة » و « الحجلة » وغير ذلك من الألعاب الشائعة بين الأطفال والصبيان . ويمارس الرفاق فى العصبة أيضا شتى الهوايات التى ينقلها بعضهم عن بعض : كالرسم والتصوير ، والرحلات ، والتمثيل ، وتربية دودة القز ، وصنع طائرات الورق وتطييرها ، وركوب الدراجات ، وصنع العرائس من القماش واللعب بها ، وإعداد بعض الثياب والأثاث لها . وتنشأ عن الزمالة فى عصبة اللعب صداقات قوية تنمو على مر الزمن . وللصداقة من هذا النوع فوائد نفسية واجتماعية ؛ لأنها تزيد شعور الفرد بالطمأنينة والأمان وتغرس فى نفسه بذور التعاون والإيثار ، فالصديق يشد أزر صديقه ويقف إلى جانبه مشاركا إياه فى المواقف المختلفة . ولذلك تأتى العصبة كجماعة بعد الأسرة فى الأهمية لمتانة الروابط التى تربط بين أفرادها .

وللجماعة الترفيهية فائدة كبيرة فى تنمية شخصية الفرد ، إذ تمنحه مجالا واسعا للتنفيس عما عنده من رغبات ونشاط زائد عن طريق اللعب مع رفاقه . فيقود بعضهم ، بينما يخضع للبعض الآخر ويطيع أوامرهم . وفى حالة ثالثة يعامل رفاقه معاملة الند للند . وفى أثناء ذلك كله يكتسب خبرات مختلفة كرائد وتابع ، كما أنه يتعلم التعاون والكفاح والصبر وتحمل المسئولية .

(د) الجماعة الدينية :

تقوم الجماعة الدينية بنشر التعاليم الدينية وتعليم الناس دينهم ليسيروا على هدى مبادئه ، ويأتمروا بأوامر الله ويتجنبوا نواهيه فتحسن معاملاتهم بعضهم لبعض . وهذه وظيفة أساسية للدين فى المجتمع ؛ لأنه يكوّن العلاقات الاجتماعية على أسس من المحبة والتسامح واللين والرحمة والقناعة وغير ذلك من الفضائل التى يبنى عليها صرح مجتمع متماسك . والدين على هذه الصورة ، يعد من الضوابط الاجتماعية ، التى تضبط سلوك كثير من الأفراد ، وتكبح جماح شهواتهم . ورجال الدين فئة من الناس خصصوا جل حياتهم لدراسة الدين ، والتفقه فيه ، وبحث مسائله المختلفة وتفاصيلها إلى جانب تعليم الناس دينهم وإرشادهم فى كثير من المشكلات التى تعترضهم . وليس بخاف أن الدين فى المجتمع الشرقى ينظم الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والنفقة والميراث .

والدين اعتقاد فى قوة غيبية عليا فوق البشر تهيمن على الكون وتتصرف فى مصائر الناس . وهذا الاعتقاد لازم لنضج شخصية الفرد ؛ لأنه إنما يؤمن بقوة يرى آثارها فى الكون وفى حياته وحياة سائر البشر ولكنه لا يرها . ولا شك فى أن هذا الإيمان يكسبه طمأنينة ويزيده قناعة ورضاء ، إذ ليس هناك ما هو آمن للإنسان من أن يكل أمره إلى قوة عليا فوق البشر . ومهما كان الإنسان منكراً وممعناً فى عدم الاعتراف بهذه القوة العليا ، فإنه لا يلبث أن ينحنى ويسلم إذا ما مسه الضر ، أو أشرف على الهلاك .

(هـ) الجماعة العسكرية :

تتكون الجماعة العسكرية من ضباط وصف ضباط من مختلف الرتب وجنود يكثر عددهم أو يقل حسب التشكيلات العسكرية المختلفة كالفصيلة والسرية والكتيبة

واللواء والفرقة والفيلق والجيش . وتقوم الجماعة العسكرية على النظام الدقيق العام الذى يظهر بعضه فى التناسق فى الملبس ، وأداء الحركات العسكرية . و تعتمد العلاقات بين أفرادها على الطاعة المطلقة من جانب المرءوس نحو رئيسه . ووظيفة الجماعة العسكرية هى الدفاع عن الوطن ضد أى اعتداء من أى دولة أخرى . وعلى ذلك يصح أن نقول : إن الجيش هو بوليس الدولة الخارجى الذى يرد العدوان عنها وبذلك يحافظ على السلام بينها و بين الدول الأخرى ، بينما مهمة البوليس الداخلى أن يمنع عدوان الناس بعضهم على بعض ، و بذلك يحافظ على الأمن العام فى الدولة .

(و) الجماعة القضائية :

تتكون الجماعة القضائية من القضاة ووكلاء النائب العام والمحامين . ووظيفة القضاة ووكلاء النائب العام مقاضاة المتهمين ، و إحقاق الحق بتبرئة البرىء ، و إدانة المذنب ، بعد إجراء تحقيقات مفصلة ، وسماع شهادة شهود الإثبات والنفى ، ومرافعة المدعى العام الذى يمثل أفراد المجتمع عامة ويدافع عن مصالحهم ويسرد الأدلة التى تدين المتهم ويطالب القاضى بالحكم عليه وتوقيع العقوبة التى يستحقها ، كما تستمع أيضاً إلى مرافعة الدفاع أى محامى المتهم الذى يوكله ليدافع عنه ويفند أدلة المدعى العام. ولا تقتصر وظيفة الجماعة القضائية على محاكمة المجرمين فحسب ، بل تفصل أيضاً فى المنازعات المدنية الخاصة بالعقود والمعاملات التجارية وما إليها ، وكذلك تحكم فى الخلافات الأسرية الخاصة بالزواج والطلاق والنفقة والحضانة والميراث .

(ز) الجماعة السياسية والإدارية :

تشمل هـــذه الجماعة الأحزاب السياسية والهيئتين التشريعية والتنفيذية . أما الأحزاب السياسية فالمفروض أنها تعبر بوجه عام عن مصالح الشعب الرئيسية .

فالمحافظون تنحصر مصلحتهم فى الإبقاء على النظم القديمة المنحدرة من الماضى ، وإصلاحها بالتدريج بترقيها شيئاً فشيئاً ، كما أنهم يفضلون التقدم البطىء المتزن . والاشتراكيون يعتقدون فى التغير والطفرة الجريئة نحو أهداف مرسومة . وهناك إلى جانب ذلك مصالح مختلفة لهيئات أخرى قد تكوّن لها أحزابا تدعو لمبادئها وتحافظ على مصالحها . والحزب الذى يفوز بالأغلبية فى الانتخابات يأخذ بيده مقاليد الأمور فترة من الزمان . ويضم البرلمان كما نعرف ، ممثلى الأمة الذين يفوزون فى الانتخاب ، ووظيفتهم مراقبة السلطة التنفيذية وسن التشريعات المختلفة أو الموافقة عليها . بينما تتوفر السلطة التنفيذية على تطبيق هذه التشريعات وإدارة شؤون الدولة داخلياً عن طريق الوزارات ومصالحها وإداراتها المختلفة .

(ح) الجماعة المهنية :

تنقسم الجماعة المهنية إلى طوائف متعددة أهمها الزراعة والصناعة والتجارة . ولكل طائفة من هذه الطوائف الثلاث صفات تمتاز بها عن غيرها . فالذين يفلحون الأرض مستقرون متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم إلى حد كبير ويكرهون التغيير ويهابونه خصوصا فى المجتمعات المتأخرة التى تسير الزراعة فيها على وتيرة واحدة ، ولا تتغير أساليبها . وعلى العكس من ذلك نجد الصناع مستعدين للتغيير ، ويتقبلون الجديد دون تهيب كبير ؛ لأن الصناعة بطبيعتها تتناول المادة بالتحويل والتغيير ، فلا تثبت على حال واحدة ، ولأن ميدان الصناعة قد أصبح مجالا لعدة كشوف واختراعات عظيمة . ولذلك كان الصناع على وجه العموم أكثر اعتقاداً بقدرة الإنسان الذى يستطيع أن يكشف ويبتكر ؛ بينما زملاؤهم الزراع أكثر اعتقادا بقدرة الله التى تتجلى فى الكون والطبيعة وهما مرتبطان أوثق ارتباط بالزراعة التى تعتمد اعتمادا كبيرا على الأحوال الجوية . أما التجار فهم بوجه عام يتصلون بكثير من الناس وكثير من الجهات لجلب السلع والاتجار فيها مع الجماعات المتعددة التى

يتكون منها المجتمع . ولذلك نجد أن التجار أكثر تسامحا من غيرهم ؛ لأن كثرة تعاملهم مع أناس يختلفون فى بيئاتهم وطرق معيشتهم يكسبهم خبرات واسعة ومعرفة بأحوال المجتمعات المختلفة وعادات أهلها وتقاليدهم ومعتقداتهم .

وهناك إلى جانب هذه الطوائف الرئيسية الثلاث طوائف مهنية أخرى : كالأطباء ، والمهندسين ، والمدرسين ، والمحامين ، وباقى الموظفين فى الخدمات العامة فى المجتمع . ويرتبط أفراد كل طائفة من هذه الطوائف بمصالح معينة تجعلهم متآلفين بوجه عام ، ولذلك نجد أن كل طائفة تكون لنفسها اتحاداً أو نقابة أو جمعية لرعاية مصالح أفرادها .

وتنحصر الوظيفة الإنسانية للجماعة المهنية فى إنتاج السلع الزراعية والصناعية وتسويقها ونقلها إلى المستهلكين ، وكذلك فى تأدية الخدمات المختلفة التى تدعو الحاجة إليها .

التخصص وتقسيم العمل فى الجماعة المهنية :

من الحرف ما لا يحتاج إلى تخصص أو تمرين طويل أو مهارة كبيرة كالزراعة بالطرق البدائية والعمليات الصناعية غير الفنية مثل تعبئة الزجاجات . ومن الحرف ما يحتاج إلى تخصص وتمرين طويل ومهارة كبيرة كالعمليات الفنية فى الصناعات الثقيلة مثل صناعة الحديد والصلب التى تحتاج إلى هذا التمرين وهذه المهارة فى إدارة بعض الآلات واستعمال بعض الأدوات . ومن المهن ما يحتاج إلى مجهود ذهنى كبير كالتدريس والهندسة والطب والمحاماة .

والتخصص وتقسيم العمل بين الجماعات المهنية المختلفة من مميزات المجتمع الحديث المعقد الذى كثر فيه عدد السكان ، وكبرت فيه الجماعات عددا ، وتحولت فيه البلاد

الصغيرة إلى مدن كبيرة ، وتنوعت فيه الكشوف والمخترعات وتعددت فيه مطالب الإنسان وكثرت وتشعبت وأصبحت لا تقتصر على الضروريات فقط ، بل استلزمت أيضاً بعض الكماليات التى أصبح لا غنى عنها ما دام الإنسان ينشد مستوى لائقاً للمعيشة . فاستعمال الثلاجات لتبريد الماء وحفظ الطعام ، واستخدام « البوتاجاز » فى الاستحمام وطهو الطعام ، وتركيب المسرة فى البيت ، كل ذلك أصبح من مستلزمات الحياة فى المجتمع الحديث لتخفيف متاعب الإنسان الذى أجهدته الحياة المعقدة .

وتقسيم العمل بين أفراد الجماعة بحيث تتخصص كل فئة منهم فى عملية معينة يجعل العمل سهلا لا يستنفد وقتاً طويلا أو مجهودا كبيرا ، كما أنه يزيد الإنتاج وفرة وإتقانا . فصناعة الملابس مثلاً تشتمل على ثلاث صناعات هامة هى الغزل والنسج والحياكة . وتشتمل كل صناعة من هذه الصناعات على عمليات كثيرة : فالغزل يشتمل على عمليات التمشيط والسحب والبرم والتنظيف وملء « المواسير » ؛ والنسج يشتمل على عمليات التجهيز والنسج بالأنوال الميكانيكية أو الآلية والصباغة والكى ؛ وتشتمل حياكة الملابس على عمليات كثيرة أخرى . ويمكنك فهم هذه العمليات وما تتطلبه من جهد إذا زرت مصنعا للغزل والنسج وآخر لحياكة الملابس الجاهزة . فستجد أن كل عامل فى هذه المصانع يؤدى عملية معينة لا تتغير ؛ وأنه بتخصصه فى أداء هذه العملية يكتسب مرانا وخبرة يجعلانه يؤديها بسرعة وبأقل مجهود ممكن .

الجماعة المهنية والتماسك الاجتماعى :

ذكرنا أن وظيفة الجماعة المهنية هى الإنتاج بصوره المختلفة ، وتسويقه بشتى الطرق ، وأداء الخدمات المتنوعة لصالح أفراد المجتمع . وبذلك تعمل الجماعة المهنية على إيجاد التماسك بين الأفراد جميعاً ؛ لأنهم يتبادلون فيما بينهم السلع والخدمات .

فالطبيب يعالج المدرس ، والمدرس يعلم ابن الطبيب ، والطبيب يعالج العامل ، والعامل ينتج ملابس الطبيب وأدواته . وهكذا يتعاون أفراد المجتمع ويكونون كالبنيان يشد بعضه بعضاً . ويصور الشاعر العربى هذه الفكرة بقوله :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وهناك علاقات تربط بين الأفراد الذين يعملون فى المهنة أو الحرفة الواحدة . ولا ترجع قوة العلاقات بين أفراد الجماعة المهنية إلى اشتراك فئاتها فى مصالح معينة فحسب ، بل ترجع أيضاً إلى تشابه ظروف عملهم ومعيشتهم وأهدافهم . فظروف العمل فى المناطق الزراعية متشابهة إلى حد كبير ، وكذلك أحوال معيشة الزراع متشابهة تشابها كبيراً . وبالمثل يوجد تشابه فى ظروف العمل بين الصناع ، وفى أحوال معيشتهم . كما يوجد تشابه إلى حد كبير فى ظروف أصحاب الأعمال وأحوال معيشتهم بصفة عامة . ويشترك جميع أفراد الجماعة المهنية ، أى الأفراد العاملون ، فى هدف واحد هو كسب الرزق عن طريق العمل .

تركيب الجماعة :

كما أن للجماعة وظيفة معينة تؤديها فى المجتمع ، فكذلك لها تركيب خاص بها يتوقف أساساً على عدد الأفراد الذين يكونونها، ونوعهم ، وفئات سنهم ،وانقسامهم إلى فئات بعضها فوق بعض فى المركز والسلطة . فالأسرة تتكون من الزوج والزوجة والأطفال . ويعد الزوج رئيس الأسرة الذى يشرف على مصالحها ويرعاها ، ولذلك يتبوأ مركزاً ممتازاً فيها . وتساعده الزوجة فى هذه الوظيفة وتأتى بعده فى المركز والسلطة . وكلما كانت الأسرة كبيرة العدد زادت الأعباء الملقاة على عاتق الزوج والزوجة .

كذلك إذا حللنا الجماعة الثقافية نجد أن المدرسة يرأسها الناظر ويشرف على إدارتها وحسن سير العمل فيها حتى تؤدى وظيفتها على خير وجه . ويعاونه فى ذلك الوكيل والمدرسون والمشرفون الاجتماعيون وبقية الموظفين . وكلما كانت المدرسة كبيرة زادت أعباء الإشراف والإدارة ، وأصبحت مهمة المدرسين والمشرفين وبقية الموظفين شاقة .

وبالمثل يمكن تحليل كل جماعة من الجماعات المذكورة آنفا لمعرفة تركيبها ووظيفة كل فرد أو فئة فيها ، وبذلك يتضح فهمنا للجماعة ووظيفتها العامة فى المجتمع . وتعرف هذه الدراسة بالدراسة التركيبية الوظيفية للجماعة . وتساعد هذه الدراسة على معرفة الدور الذى يؤديه الأفراد فى الجماعة ، وعلاقتهم بعضهم ببعض ، ومراكزهم وسلطاتهم . وقد مكنتنا هذه الدراسة من التمييز بين نوعين من الجماعات تبعا لقوة العلاقات التى تنشأ بين الأفراد أو ضعفها . أما النوع الأول ذو العلاقات القوية فيسمى « بالجماعات الأوليــة » ويطلق على النوع الثانى ذو العلاقات الضعيفة إصطلاح « الجماعات الثانوية » .

الجماعة الأولية :

تمتاز الجماعة الأولية بقوة العلاقات التى توجد بين أفرادها واستدامتها . تلك العلاقات التى تربطهم بعضهم ببعض بروابط متينة حساسة مثل الأسرة وجماعات الأصدقاء .

ومما يوطد العلاقات بين أفراد هذه الجماعات صغرها ، وقرب أفرادها بعضهم من بعض ، ورؤيتهم بعضهم بعضا مرات كثيرة قد تكون مرة أو أكثر كل يوم . ولذلك تنشأ بينهم علاقات تسمى « علاقات الوجه للوجه » لكثرة رؤية الفرد وجه الفرد الآخر فى أوقات متقاربة .

وفى حالات كثيرة تعد المنطقة الصغيرة المزدحمة بالسكان جماعة أولية كذلك . فمن طبيعة القرب المكانى فى السكنى أن يجعل من السهل إطلاع الفرد على أحوال غيره . وفى المنطقة الصغيرة المزدحمة بالسكان لا تستطيع الأسرة أن تخفى شؤونها عن الأسر الأخرى ، كما لا يتسنى لها أن تمتنع عن الإحساس بما يحدث فى الأسر الأخرى . فكل منها تعرف — بالاتصال والمشاهدة — أخبار غيرها من الأسر ، وترى الداخل إليهم والخارج من عندهم ، وتجد نفسها مجبرة على مشاركتهم فى السراء والضراء .

وتمتاز الجماعة الأولية إلى جانب ذلك بوجود هدف مشترك قوى يربط أفرادها بعضهم ببعض بروابط متينة .

الجماعة الثانوية :

تعرف الجماعة الثانوية بضعف علاقات أفرادها بعضهم ببعض وعدم استدامتها . وتنشأ العلاقات بين أفراد الجماعات الثانوية لظروف خاصة قد لا تستمر طويلا ، ولمصالح معينة تؤلف فيما بينهم . وإذا ما انتهت الظروف الخاصة أو قضيت المصالح أو أجيبت الطلبات سرعان ما تنتهى تلك العلاقات . وكلما قويت العلاقات التى تربط بين أفراد الجماعة الثانوية واستدامت ، صارت أقرب إلى الجماعة الأولية . وعلى العكس من ذلك ، كلما ضعفت تلك العلاقات وفترت وقصرت مدتها فى جماعة من الجماعات ، صارت أقرب إلى الجماعة الثانوية . ومن أمثلة الجماعات الثانوية الصرفة الشركة المساهمة التى تتكون من أفراد لا يعرف بعضهم بعضاً ، وأما العلاقة التى تربط بينهم فهى اتحادهم فى الغرض الذى ينحصر فى استثمار أموالهم .

دور الفرد فى الجماعة:

ومهما يكن شكل الجماعة ونوع العلاقات التى تربط أفرادها بعضهم ببعض فإن للفرد فيها دوراً أساسياً . فالجماعة أولا وقبل كل شىء تتكون من عدد من الأفراد ؛ ولولا الفرد ما كانت الجماعة . والفرد فى أثناء نموه فى الجماعة وتبلور شخصيته خلال النمو ، يأخذ من الأفراد الآخرين الذين يتعاملون معه ، كما يعطيهم بدوره ؛ وإن كان ما يأخذه فى بعض الأحيان أكثر مما يعطى . فالطفل فى أسرته يمر فى مراحل يكون فيها شديد التأثر بوالديه وبإخوته وأخواته الكبار وغيرهم ممن يشاطرونهم المعيشة فى بيت واحد . فهو يأخذ منهم وينقل عنهم ويحاكيهم كما بينا فى الفصل الأول ، والطفل بدوره يدخل السرور على والديه ومن حوله من الكبار ، إذ الأطفال زينة الحياة الدنيا . وإذا ما كبر الطفل أصبح له دور يؤديه فى الأسرة ، فقد يساعد والده فى الحقل أو فى محل عمله ، أو يشتغل ويعاونه ماليا .

والأصدقاء فى عصبة اللعب يتعاونون فى مختلف الألعاب كى يمرحوا ويستفيدوا من الوقت الذى ينفق فى اللعب . ولا ينكر أحد أن إخفاق بعض فرق كرة القدم يرجع فى كثير من الأحيان إلى أنانية بعض اللاعبين وانفرادهم باللعب وعدم تعاونهم مع زملائهم فى تمرير الكرة وتبادل المراكز . وكما أن عصبة اللعب تساعد فى تنمية شخصية الفرد ، فإن الفرد بدوره يستطيع بقوة شخصيته أن يؤثر فى زملائه ؛ وبخاصة إذا كانت له ميزات معينة تجعل له القيادة فيهم ، وتحملهم على الإذعان له واتباعه . وهكذا نجد أن العلاقة بين الفرد والجماعة فى عصبة اللعب علاقة متبادلة . وكثيراً ما يظهر التنافس بين أفراد الجماعة الترفيهية ؛ ولكن هذا التنافس دليل على حيوية متدفقة تريد أن تظهر فى حدود أنظمة معينة ، فيحفز على التدريب واكتساب الخبرة ، وعقد حلبات المصارعة والملاكمة ، وإقامة مباريات كرة المضرب وكرة السلة وكرة الحائط وكرة المائدة ، وتنظيم أنواع السباق المختلفة .

ويختلف الدور الذى يلعبه الفرد فى الجماعة الثقافية حسب الهيئة التى ينتمى إليها ويظهر نشاطه فيها . فالفرد فى المدرسة يأخذ عن مدرسيه العلم وتتأثر شخصيته بهم إلى حد بعيد ، والمدرسة من هذه الوجهة تشبه الأسرة شبها كبيراً ؛ لأن المدرسين كالوالدين يؤثرون فى نفس التلميذ وطريقة تفكيره وسلوكه . وكثيراً ما يظهر التنافس بين تلاميذ المدرسة الواحدة ، أو الفصل الواحد ؛ ولكن الإشراف الحكيم والتوجيه السليم يجعلان من نشاط التلاميذ وسيلة لشحذ هممهم وإيقاظ وعيهم .

أما دور الفرد الذى يشاهد فلما سينمائياً ، أو يستمع إلى الإذاعة ، أو يتصفح الصحف ، فهو دور سلبى للغاية ؛ إذ هو يتأثر دون أن يؤثر . ولذلك كان تأثير السينما والإذاعة والصحف والكتب فى الأفراد بعيد المدى . وهذا يفسر لنا السبب فى أن هذه الوسائل كثيراً ماتستهدف لرقابة شديدة من قبل الحكومة ، وبخاصة الأفلام التى قد تنحرف أحياناً عن رسالتها . وقد اقتضى الصالح العام فرض رقابة مستديمة عليها ، وتحديد الأفلام التى لا يجوز لغير البالغين مشاهدتها . وإذا تدبرت أثر المؤلف الفرد فى قرائه تجده بالغ الخطورة ، فإن ما يكتبه من قصص أو يذيعه من أحاديث ، أو يكتبه من مقالات قد يحدث فى نفوس الناس آثاراً بعيدة تغير نظرتهم نحو فكرة معينة .

ويمكنك أن تستخلص مما تقدم أن للفرد دوراً فى كل جماعة ينتمى إليها ويتعامل مع أفرادها . وأن هذا الدور قد يكون مبنياً على التعاون أو التنافس والأخذ أو العطاء والتبعية أو القيادة ، والتأثر أو التأثير حسب مركز الفرد فى الجماعة ، وظروفه فيها ، وتبعا لنوع الجماعة وتركيبها ، والوظيفة التى تؤديها فى المجتمع .

الفصل الثالث

اختلاف أساليب الحياة فى مختلف المجتمعات

وأثر ذلك فى الفرد والمجتمع

الإنسان والبيئة :

يحتاج الإنسان فى حياته إلى مكان يعيش فيه ، ومسكن يقطنه ، ومناخ يلائمه ، وغذاء يأكله ، وماء يشربه ، وثياب يلبسها ، وأدوات يستخدمها . وهذه العناصر اللازمة لحياة الإنسان تعد جزءاً هاما من البيئة الجغرافية ، وتتصل اتصالا ظاهراً بمعيشة الناس ونظمهم الاجتماعية واتجاهاتهم ووجوه نشاطهم ومعاملاتهم التى تسود فى مجتمع من المجتمعات .

فمن ناحية المكان نجد أن ظاهرات السطح تختلف من جهة إلى أخرى ، ويكون للإنسان أثره فيها ، كما يكون لها أثرها فى حياته . فمن يسكن ضفاف الأنهار يحيا حياة تختلف اختلافا كبيراً عن حياة سكان الصحارى . ومن يسكن السهول تختلف أساليب حياته عن أساليب حياة سكان الجبال اختلافا ظاهرا . وكذلك سكان السواحل يكون لهم طابع خاص فى حياتهم يختلف عن حياة سكان المناطق الداخلية البعيدة عن البحار . وقد تعزل الجبال والبحار والمجتمعات بعضها عن بعض ، كما أن الأنهار الصالحة للملاحة والسهول والوديان تعد وسائل تساعد على الاتصال بين المجتمعات . وتؤثر ظروف المكان فى المسكن إلى حد كبير إذ تحدد نوعه ، وطريقة تشييده ، والمادة التى يشيد منها .

وخصب الأرض أو قلة خصبها أو تعرضها للجفاف يؤثر فى الإنسان ؛ لأنه يعيش على ما تنبته الأرض من نبات ، وعلى ما يوجد عليها من حيوان يعيش على أنواع من هذا النبات .

وأما المناخ فله أثره الواضح أيضاً فى حياة الإنسان . وأنت تعرف من دراستك السابقة كيف أن المناخ قد شكل حياة الإسكيمو مثلا وطبعها بطابع خاص ، وأثر تأثيراً واضحا فى حياة الزنوج كذلك وفى حياة غيرهم من الناس وما يقومون به من أعمال .

ولا شك فى أن الإنتاج الحيوانى والزراعى له قيمته فى حياة الإنسان ، إذ يسد جانباً هاما من حاجاته الأساسية . وقد يكون هذا الإنتاج فى نفس البيئة التى يعيش فيها الإنسان ، أو يكون فى بيئة أخرى ثم يرسل إليه بوسائل مختلفة . وفى حالة الإنتاج فى البيئة نفسها تتشكل حياة الناس وتصبغ بصبغة خاصة تتمشى مع ظروف هذا الإنتاج ووسائله .

وأما مصدر الماء اللازم للشرب وإرواء الزراعة ، فله أثره أيضا فى حياة الناس . وما حياة سكان الصحارى ، وحياة الناس على ضفاف الأنهار أو فى المناطق الغزيرة الأمطار إلا أمثلة ظاهرة لهذا الأثر .

والصناعة لا تتيسر إلا فى بيئات غنية بالمعادن المختلفة التى يستخدمها الإنسان فى صنع أدوات وآلات . وتختلف المجتمعات الصناعية اختلافاً كبيراً عن المجتمعات الزراعية كما سيتبين لك فيما بعد .

وهكذا تجد أن للبيئة الجغرافية آثاراً لا يمكن إغفالها إذا أردت أن تفسر اختلاف أساليب الحياة فى المجتمعات المختلفة .

العوامل الاجتماعية التى تؤدى إلى اختلاف المجتمعات :

ولكن ليس معنى ذلك أن العامل الجغرافى هو العامل الوحيد أو العامل الذى لا يضارع فى تحديد أساليب الحياة فى المجتمعات المختلفة ، وتشكيل عادات الأفراد فيها ونشاطهم ومعاملاتهم . ولو صح ذلك لتشابه سكان البيئات الزراعية فى مشارق الأرض ومغاربها فى عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وأساليب تفكيرهم وحضارتهم ، ولا يكون هناك فرق بين الصينيين والهنود والمصريين ، ما دامت نسبة الفلاحين فى كل شعب منهم غالبة . ولكن الواقع أن كل شعب يختلف فى أساليب حياته عن غيره من الشعوب اختلافاً ظاهرا . فما العوامل التى تؤدى إلى هذه الاختلافات بين شعوب تتشابه بيئاتها الجغرافية من نواح كثيرة ؟

هناك عوامل كثيرة تتعلق بالكيفية التى تكوّن بها كل مجتمع من هذه المجتمعات ، وما مر عليه من أحداث سياسية ، وما ظهر فيه من معتقدات دينية وخرافية ، ومدى اختلاط سكانه نتيجة هجرة الأجانب إليه أو دخولهم فاتحين واستقرارهم فيه ، ومبلغ تكاثرهم ، ودرجة تماسك مختلف الجماعات التى يتكون منها أو تفككهم ، وما ظهر فيه من كشف واختراع مكن سكانه من السيطرة على بعض العوامل الجغرافية كإقامة السدود و إنشاء القناطر على الأنهار للتحكم فى مياهها ومنع خطر فيضانها ، ورى مساحات شاسعة من الأراضى . ولا شك فى أن العلم قد مكن البشر من السيطرة على الطبيعة من وجوه كثيرة ، وساعدهم على تغيير آثارها إلى ما فيه فائدتهم كتحويل الأراضى القاحلة إلى أراض صالحة للزراعة ، وكشق الأنفاق فى الجبال .

مقارنة بين المجتمع الزراعى والمجتمع الصناعى :

على الرغم من أن المجتمعات المتقدمة فى عصرنا هذا تجمع ما بين الزراعة والصناعة ، فإن إحدى الحرفتين غالباً ما تسود فى كل مجتمع من هذه المجتمعات ، وتستوعب

العدد الأكبر من سكانه أو على الأقل تكون الجزء الأكبر من اقتصادياته ؛ وعلى هذا الأساس يعد المجتمع زراعياً إذا تغلبت فيه الزراعة وكان أغلب سكانه يشتغلون بها ويعيشون عليها كما هى الحال فى مصر والصين . وعلى العكس من ذلك يعد المجتمع صناعياً إذا تغلبت فيه الصناعة وكان العدد الأكبر من السكان يشتغلون بها ويعيشون عليها كما هى الحال فى انجلترا وبلجيكا . ولو قارنا المجتمعات الشرقية بالمجتمعات الغربية فى مجموعها ، وبخاصة من الناحية الاقتصادية ، لوجدنا أن الزراعة غالبة على الصناعة فى المجتمعات الشرقية ، بينما الصناعة غالبة على الزراعة فى المجتمعات الغربية .

وتختلف الحياة فى المجتمع الزراعى عنها فى المجتمع الصناعى من نواح كثيرة أهمها ما يأتى :

(ا) السكان :

إذا درست سكان المجتمعات المختلفة تجد أن نسبة تزايدهم فى المجتمع الزراعى أعلى منها فى المجتمع الصناعى . ذلك لأن الأطفال يستطيعون مساعدة آبائهم فى المجتمع الزراعى فى سن مبكرة ؛ لأن الزراعة لا تحتاج إلى تخصص مفصل أو معرفة عميقة ، فيرغب الآباء فى نسل كثير . ويشجع على ذلك أن الحياة فى المجتمع الزراعى أبسط منها فى المجتمع الصناعى وأرخص فلا تتكلف تربية الأطفال كثيراً . بينما ينتشر تحديد النسل فى المجتمع الصناعى الذى تتعقد فيه الحياة وتحتاج إلى تخصص دقيق ومعرفة واسعة لا تأتى إلا بطول الدراسة ، وترتفع فيه تكاليف المعيشة إلى درجة تجعل المتزوجين يحسون بما تتكلفه تربية الأطفال من مال كثير وجهد كبير ، فيتجهون إلى تحديد نسلهم .

(ب) الأفكار والمعتقدات :

إن الصناعة تجعل المشتغلين بها يؤمنون بصفة عامة بقيمة العلم وتطبيقه لرفع مستوى المعيشة ، كما أنهم يشعرون بقدرة العدد والآلات والأدوات على مساعدة الإنسان وتخفيف آلامه وتقليل متاعبه . ذلك لأنهم يلمسون بأنفسهم إنتاج الآلات فى المصانع . ولما كانت الحياة فى المجتمع الصناعى معقدة ويقل فيها إنتاج المواد الغذائية الزراعية والحيوانية ، أصبحت تحتاج إلى تدبير دقيق وإلا تعرضت للخطر . ولذلك تعمد بعض الدول فى الحرب إلى فرض حصار واسع النطاق على الدول المعادية لتمنع عنها الموارد الغذائية فترغمها على التسليم فى النهاية . فالتدبير للمستقبل برسم خطط مفصلة توضع من قبل إنما هو ظاهرة من أبرز الظاهرات فى المجتمع الصناعى .

أما أفراد المجتمع الزراعى فيعتمدون اعتماداً كبيراً فى زراعتهم على الطبيعة وعناصرها الأساسية وهى الأرض ، والماء ، والهواء ، وحرارة الشمس ، والدواب التى يستفيدون من ألبانها ولحومها وجلودها وأصوافها ، فيجعلهم ذلك أقرب إلى الطبيعة وآثارها وأشد إيماناً بالله وقدرته . ولذلك تجد التدين أقوى وأشد فى المجتمع الزراعى منه فى المجتمع الصناعى . كما أن وفرة الغذاء فى المجتمع الزراعى وقلة تكاليف الحياة نسبياً تجعل اهتمام الأفراد برسم الخطط والتدبير للمستقبل أقل منه فى المجتمع الصناعى ، ولذلك يبدون متواكلين فى حياتهم إلى حد ما .

(حـ) الناحية المادية :

المجتمع الصناعى أغنى فى الناحية المادية من المجتمع الزراعى . وكثيرا ما يعتقد أفراد المجتمع الصناعى فى ماديته وآلاته وما تنتجه المصانع من سلع وأدوات وذخيرة حربية وطائرات وبوارج ودبابات وغواصات . وكثيرا ما يدفعهم شعورهم بالقوة إلى العدوان على المجتمع الزراعى . وقد يشجعهم على هذا العدوان طمعهم فى تصريف

جزء من منتجاتهم فيه . كما نجد أن الدول البارزة ذات النفوذ فى ميدان السياسة الدولية فى الوقت الحاضر هى الدول التى نمت فيها الصناعة نمواً كبيراً ، فى حين أن الدول الزراعية لم تصل فى هذا الميدان إلى مستوى الدول الصناعية .

وقد فطنت الدول الشرقية إلى هـذه الحقيقة فأخذت بأساليب التصنيع تدريجيا ، وكلما نمت الصناعة فيها زادت قوتها وأرغمت دول الغرب الصناعية القوية على احترامها . ومن أجل هذا نجد أولى الأمر فى جمهورية مصر يولون التصنيع عناية فائقة لأنه السبيل إلى دعم الحياة الاقتصادية فى المجتمع بإنتاج سلع تغنى عن جزء مما نستورده من الخارج وسلع أخرى يمكن تصديرها إلى المجتمعات الأجنبية .

المجتمعات الشرقية والمجتمعات الغربية :

نعود فنكرر أن المجتمعات الشرقية فى جملتها زراعية أساساً ، أى تغلب فيها الزراعة على الصناعة . بينما الأمر على العكس من ذلك فى معظم المجتمعات الغربية ؛ إذ تحتل الصناعة فيها المكان الأول بصورة عامة .

وللمجتمعات الشرقية طابع يجعلها تختلف عن المجتمعات الغربية :

ففى المجتمعات الشرقية بوجه عام ، يكثر التمسك بالتقاليد ، وتوجد فى الغالب روابط فى الأسرة واسعة النطاق وأقوى مما فى المجتمعات الغربية . ولكن نسبة المتعلمين ما زالت قليلة ، ويوجد عند كثير من الأفراد نوع من التواكل .

أما المجتمعات الغربية بوجه عام فيكثر فيها التغير السريع ، وتقل فيها روابط الأسرة وتنحصر فى أضيق نطاق ، وينتشر التعليم فيها انتشارا كبيرا ، ويستخدم العلم فى الحياة على نطاق واسع .

هذه أمثلة لأوجه الاختلاف التى توجد بين المجتمعات فتؤدى إلى اختلاف فى أساليب الحياة فى كل منها عن الآخر . فإذا ما أضيفت إلى ذلك الأحداث التاريخية التى تجرى فى كل مجتمع على حدة فإنه يظهر بوضوح إلى أى حد يختلف كل مجتمع عن الآخر .

وإذا ما ولد الفرد وعاش فى المجتمع وعاشر أفراده تعلم لغتهم واكتسب عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم وأساليب تفكيرهم ، ولبس كما يلبسون ، وسكن كما يسكنون ، وأكل كما يأكلون ؛ وهكذا يقتبس أسلوب حياته من أسلوب حياتهم ، أى ينقل عنهم ثقافتهم وحضارتهم ، أو ما يعرف « بالتراث الاجتماعى » وهو موضوع الدراسة فى الباب الثالث .

الباب الثاني

تكوين المجتمع

الفصل الأول

السكان وتوزيعهم

تختلف المجتمعات فى درجة تقدمها أو تأخرها ، وفى المستويات العامـة فى المعيشة بسبب :

١ — الفروق الواسعة بين الموارد الميسورة لـكل منها .

٢ — الاختلاف فى درجة التوازن بين المجتمع وسكانه .

أما الموارد الميسورة للمجتمع فيمكن أن نقسمها إلى أربعة أقسام رئيسية هى :

١ — الموارد الطبيعية :

وتتضمن مساحة الأرض التى يقوم عليها المجتمع ، ونوع التربة ودرجة خصبها أو جدبها ، وكمية المعادن التى بالأرض وقيمتها بالنسبة لحاجات المجتمع ، والموقع الجغرافى لهذا المجتمع ومدى أهمية هذا الموقع تجاريا أو حربيا ، واعتدال المناخ أو تطرفه . ولهذا النوع من الموارد أثر كبير فى حياة المجتمع .

٢ — الموارد الفنية :

وهى الوسائل التى يستعين بها المجتمع فى استغلال موارده الطبيعية وزيادة إنتاجه. فالمجتمعات التى تستخدم المخترعات الحديثة وتبتكر الوسائل الفعالة فى نشاطها الزراعى أو الصناعى ، وفى شؤون حياتها الأخرى ، تفوق فى مستوى معيشة أهلها المجتمعات

التى لاتفيد من التقدم العلمى ، ولا تحاول إحلال الوسائل الحديثة محل الوسائل القديمة البالية . فكم من بلاد جادت عليها الطبيعة بموارد عديدة ولكنها ما زالت موجودة فى باطن الأرض ، ولا تستفيد من ورائها خيراً ، ولا تجنى منها ثمراً .

٣ — الموارد الاجتماعية :

ويقصد بها النظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع . فقد يكون من أثرها تنشيط التجارة والصناعة واستقرار النظام المالى ، وتدعيم النظام العمالى بصورة تشحذ همة الصانع فيضاعف إنتاجه ويرتفع مستواه ويعم الخير المجتمع كله . وقد يكون من أثرها كساد التجارة وتدهور الصناعة واضطراب الشؤون المالية ، ونزع الثقة بين العامل وصاحب العمل فيقل الإنتاج وينخفض مستوى المعيشة .

٤ — الموارد الإنسانية:

ونعنى بها الأفراد الذين يتألف منهم المجتمع ؛ إذ تعتمد قوة المجتمع أو ضعفه ومستوى معيشة أفراده إلى حد كبير على :

(ا) عدد هؤلاء الأفراد ودرجة نموهم .

(ب) نسبة كثافتهم .

(حـ) توزيع أعمارهم .

(د) كيفية تفرقهم أو تجمعهم فى البيئات التى يتألف منها مجتمعهم .

(هـ) مدى استقرارهم أو تنقلهم .

(و) نوع ثقافتهم .

لهذا نرى اهتماما كبيراً بدراسة السكان ، فأصبحت موضوعاً من أهم الموضوعات التى تتناولها أكثر العلوم الاجتماعية بالبحث والدراسة . كما أصبحت ميدانا لجهود كبيرة يبذلها فى وقتنا هذا الاجتماعيون والاقتصاديون والديموجرافيون (أى الإخصائيون فى دراسة السكان) . ويعنى هؤلاء الإخصائيون بتتبع الاتجاهات السكانية فى أنحاء العالم ، وتحليل أسباب هذه الاتجاهات ؛ سواء كانت اتجاهات نمو سريع أو بطىء ، أو اتجاهات استقرار من غير زيادة أو نقصان فى عدد السكان . ويعنى هؤلاء الإخصائيون أيضاً بتقدير أثر هذه الاتجاهات فى توزيع السكان حسب أعمارهم ونوعهم ، وما تحدثه هذه الظاهرات فى حالة المجتمع الاقتصادية . إذ لكل تغيير فى عدد السكان وأعمارهم ونوعهم أثر ظاهر فى انتاجهم واستهلاكهم ، وتوزيع الخدمات بينهم .

الدراسات السكانية القديمة

الاهتمام بمسألة السكان منذ القدم:

ليس الاهتمام بدراسة المسائل السكانية وليد اليوم ، فقد عنى المفكرون ببحثها فى الماضى البعيد وانتهوا إلى آراء معينة ، ووضعوا سياسات سكانية ، يهدف بعضها إلى زيادة السكان ، ويحاول البعض الآخر منع هذه الزيادة ، كما قصد بعض المفكرين إلى تحسين النوع ، بينما اقترح بعض آخر إعادة توزيع السكان فى المجتمع لتحقيق التوازن بين الموارد الاقتصادية وعدد السكان . وقد اختار كل مجتمع السياسة السكانية التى تتمشى مع حاجاته وتتلاءم مع الأهداف التى يرى الوصول إليها .

وقد لجأت المجتمعات القديمة إلى وسائل متنوعة للحد من زيادة السكان ، ومن هذه الوسائل :

١ — وأد الأطفال .

٢ — الإجهاض .

٣ — قتل الشيوخ والمرضى .

٤ — فرض القيود الثقيلة على من يتزوجون .

٥ — تشجيع الهجرة إلى خارج المجتمع .

أما سياسة زيادة السكان فقد كانت تقترن بمنع الوسائل التى كانت تحول دون هذه الزيادة ، وكانت تتخذ من التعاليم الدينية وسيلة للحض على كثرة التناسل ، كما أنها أثارت العواطف القومية للحصول على مزيد من السكان يدافعون عن الوطن.

ومن الوسائل التى اتبعتها بعض المجتمعات القديمة لتحسين النسل ما قام به أهل إسبرطة من وأد الأطفال المشوهين وتعريض ضعاف الأجسام والشيوخ إلى الهلاك تخلصا من عناصر الضعف فى المجتمع .

وقد رأت بعض الدول أن تحدث توازنا فى كثافة السكان وكفاياتهم فلجأت إلى إعادة توزيعهم بين الريف والمدن ، وبين جهات المجتمع الواحد ، وتوزيعهم على الحرف المختلفة كالتجارة والصناعة والزراعة .

آراء بعض الفلاسفة والمفكرين فى مسألة السكان :

وقد شغلت المسائل السكانية الفلاسفة والمفكرين منذ القدم ، ووصلوا فيها إلى آراء معينة كما ذكرنا آنفا ، فكان من رأى كونفشيوس ، الفيلسوف الصينى ، أن الزيادة السريعة فى السكان تؤدى إلى نقص فى مستوى إنتاج الفرد وتنتهى بخفض

مستوى معيشة الطبقات العاملة . وأشار إلى نظرية الحد الأمثل للسكان فى المجتمعات الزراعية ، فافترض أن لكل مجتمع زراعى عدداً محدوداً من السكان يستطيع المعيشة فيه على أحسن مستوى ممكن ، فإذا زاد ذلك العدد أو قل انخفض مستوى المعيشة . وأشار إلى ضرورة الموازنة بين الأرض وعدد سكانها ، وعد الدولة مسئولة عن حفظ هذا التوازن ، بأن تنقل السكان من الجهات المزدحمة إلى الجهات غير المزدحمة .

وكان لأفلاطون وأرسطو من فلاسفة اليونان رأى فى نظرية العدد الأمثل للسكان ، وجعلوه شرطا لتحقيق (المدينة الفاضلة) . أما الرومان فقد شجعوا على كثرة المواليد وزيادة النسل حتى يزداد السكان زيادة سريعة تساعدهم فى فتح البلاد وتيسر لهم إقامة إمبراطورية مترامية الأطراف .

ولم يهمل فلاسفة العرب موضوع السكان ، فكان لابن خلدون فيلسوف القرن الرابع عشر نظريته المشهورة عن (التغيرات الدورية للسكان) ووضح علاقة هذه التغيرات بالأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والنفسية .

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ظهر فى أوروبا بعض الفلاسفة الاقتصاديين الذين اهتموا بتدعيم اقتصاديات الدولة بالتجارة وما تدره من كسب وفير ؛ ولذلك عرف مذهبهم بالمذهب التجارى أو الكسبى . وكان رأيهم فى السكان أنه كلما زاد عددهم ازدهرت الصناعة وراجت التجارة وقويت الدولة ؛ لأن زيادة السكان السريعة فى نظرهم تقترن برخص اليد العاملة ، فتنخفض قيمة الإنتاج ويتيسر للدولة التفوق فى المنافسة التجارية . لذلك بذلوا جهدا كبيرا فى زيادة السكان ، ولم تخطر ببالهم مشكلة مستوى المعيشة بين العمال .

نظرية مالثوس فى السكان :

ومع أن الفلاسفة والمفكرين أبدوا رأيهم فى المسائل السكانية منذ عصور المدنيات القديمة فإن دراسة هذه المسائل دراسة علمية دقيقة لم تبدأ إلا فى أواخر القرن الثامن عشر . وقد كان الحافز لها كتابات مالثوس ، القس الانجليزى الذى وضع نظريته المشهورة فى السكان ؛ فهو يعد بحق مؤسس الدراسات السكانية الحديثة ، وإن كان قد أخطأه التوفيق إلى حد كبير فى نظريته المبنية على (التسابق بين حاجات الإنسان من جهة والسكان من جهة أخرى) وذلك لإغفاله اعتبارات اقتصادية واجتماعية لها أثر كبير فى المسائل السكانية .

وتتلخص نظريته فى أن قدرة الإنسان على زيادة موارده وحاجات معيشته تقل كثيراً عن قدرته على الإكثار من نسله وزيادة عدد السكان الذين يعتمدون على هذه الحاجات . وليس من سبيل إلى تفادى خطر هذه الزيادة إلا بالحد من الزيادة السريعة فى السكان ، إما عن طريق سلبى أى بتقليل عدد المواليد . وذلك بتأخير الزواج أو بالانصراف عنه كلية ، أو عن طريق إيجابى أى بزيادة عدد الوفيات ، وذلك بانتشار المجاعات والبؤس والحرمان والحروب ، فيتسنى بذلك التوازن بين الموارد المادية من جهة وحاجات الإنسان الأساسية من غذاء وكساء من جهة أخرى . ولكن مالثوس رأى أن الطريق السلبى يتعذر تحقيقه ، لأنه لا يتمشى مع طبيعة الإنسان وميله إلى الزواج . ولذلك رأى مالثوس أن الإنسان قد قدر له أن يعانى الفقر والبؤس والحرمان والمرض نتيجة انتشار المجاعات والأوبئة فى المجتمع ؛ فيؤدى ذلك إلى هلاك عدد كبير من السكان ، وهكذا ينقص عددهم حتى تعود حالة الموازنة « مؤقتا » بين الغذاء والسكان ، ولكن لا يلبث أن يبدأ التسابق بينهما مرة أخرى وينتهى بعد زمن محدود على النحو الذى انتهى إليه من قبل ، وهكذا دواليك .

وقد اختلف تقدير المفكرين لرأى مالتوس فى السكان ، وتعرضت نظريته لنقد شديد . وكان من أهم ما أخذ عليه أنه تجاهل الأثر الفعال لوسائل ضبط النسل كعامل رئيسى فى تحديد عدد السكان ، إذ لا شك فى أن هذا العامل يجنب المجتمع الحاجة إلى الأوبئة والمجاعات لإعادة التوازن بين السكان وحاجات الإنسان الأساسية ، علما بأن وسائل ضبط النسل كانت معروفة فى أيامه ، وكانت مجال نقاش بين طبقات المجتمع كافة ، ولكنه كان يعارضها بشدة ويعدها من الرذائل المفدة للمجتمع . كذلك أخطأ مالتوس فى عدم تقدير أثر التقدم العلمى فى زيادة الإنتاج الزراعى والصناعى ، وقدرته على كفاية مطالب الناس الأساسية من غذاء وكساء .

وإنا لنشهد اليوم جهات كثيرة مزدحمة بالسكان تتعرض إلى أوبئة ومجاعات فترتفع نسبة الوفيات فيها ولا سيما بين الأطفال ؛ وذلك بسبب فقرها وسوء حالها ، أى بسبب عدم التوازن بين مواردها وعدد سكانها .

ومن أهم نتائج كتابات مالتوس أنها أثارت اهتمام أتباعه ومعارضيه على السواء بمشكلة السكان ، وحفزتهم على جمع البيانات التى توضح علاقة السكان بالمشكلات الاجتماعية والاقتصادية ؛ فعنيت الأمم المتقدمة بإجراء تعدادات دورية لسكانها ، ونظمت تسجيل المواليد والوفيات ، وابتدعت الطرق الفنية للبحوث الديموجرافية ؛ وحاولت وضع نظريات سكانية جديدة على أساس هذه البحوث.

الموقف السكانى فى العالم اليوم

كان من أثر اهتمام كثير من الدول بإجراء تعدادات دورية ، وجمع بيانات وافية عن السكان ، أن أمكن القيام ببحوث تدل على الاتجاهات السكانية فى العالم ، بعد عمل تقدير لسكان الجهات التى لم تصل فيها التعدادات إلى مستوى من الدقة

يمكن الاعتماد عليه . وتدل هذه البحوث على أن سكان العالم قد نموا منذ منتصف القرن السابع عشر بنسبة مطردة فى كثير من جهات العالم ؛ وهذا أمر خطير يدعو إلى اليقظه والاهتمام ، إذ لم يحدث فى تاريخ العالم أن اطردت الزيادة فى سكانه على هذا المنوال ، ويخشى إن استمرت هذه الزيادة أن يواجه العالم خطرًا محققاً قد يعود به إلى الفقر والبؤس والحرمان .

ولم تطرد الزيادة بنسبة واحدة فى جميع جهات العالم ، بل تفاوتت هذه النسبة فى القرون الثلاثة الماضية فى كل قارة من القارات الخمس كما يبدو فى الجدول الآتى رقم (١) :

جـــدول (١)

تقديرات سكان العالم من سنة ١٦٥٠ إلى سنة ١٩٥٠

السنة	مجموع سكان العالم بالمليون	افريقيا عدد السكان بالمليون	آسيا عدد السكان بالمليون	أوربا عدد السكان بالمليون	أمريكا الشمالية عدد السكان بالمليون	أمريكا الجنوبية عدد السكان بالمليون
١٦٥٠	٥٤٥	١٠٠	٣٢٧	١٠٣	١	١٢
١٧٥٠	٧٢٨	٩٥	٤٧٥	١٤٤	١١	١١
١٨٥٠	١١٧١	٩٥	٧٤١	٢٧٤	٢٦	٣٣
١٩٥٠	٢٤٠٦	١٩٩	١٢٧٢	٥٩٤	١٦٦	١٦٢

ويلاحظ أن قارة افريقيا كانت أقل القارات نموا فى سكانها فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة على الرغم من تضاعف عدد سكانها ، وتليها آسيا ثم أوروبا فأمريكا الجنوبية ، وبلغت الزيادة أقصاها فى أمريكا الشمالية إذ وصلت فى عام ١٩٥٠ إلى ١٦٥ ضعفا عما كانت عليه فى عام ١٧٥٠ .

وقد قامت هيئات علمية بتقدير عدد سكان العالم فى مختلف العصور لتبين اتجاهات نموهم . و يشتمل الجدول رقم (٢) على سكان العالم فى العام الميلادى الأول وفى كل مائة عام منذ منتصف القرن السابع عشر :

جـــدول (٢)

سكان العالم

التاريخ	عدد السكان بالمليون	مقدار الزيادة بالمليون بين كل فترة والفترة السابقة لها
العام الميلادى الأول	٣٥٠	
عام ١٦٥٠ م	٥٤٥	١٩٥
عام ١٧٥٠ م	٧٢٨	١٨٣
عام ١٨٥٠ م	١١٧١	٤٤٣
عام ١٩٥٠ م	٢٤٠٦	١٢٣٥

و يتضح من الجدول السابق أن سكان العالم قد زادوا بنسبة غير كبيرة فى خلال سبعة عشر قرنا تقريبا منذ العام الميلادى الأول ، إذ بلغت الزيادة خلال هذه الفترة ١٩٥ مليونا ؛ ثم بدأت الزيادة بعد ذلك تسرع الخطى ، فبلغت فى قرن واحد ١٨٣ مليونا ، ثم زاد العدد إلى أكثر من الضعف فى القرن الذى تلاه . وكان عدد السكان فى العالم فى سنة ١٩٠٠ نحو ١٥٥٠ مليون نسمة ، وفى عام ١٩٥٠ نحو ٢٤٠٦ مليون نسمة ؛ ومعنى ذلك أن الزيادة فى هـــذه الفترة (أى فى نصف قرن) تعادل مجموع سكان الولايات المتحدة الأمريكية و بريطانيا وألمانيا وفرنسا و إيطاليا و روسيا واليابان وأربع دول أخرى يبلغ سكان كل منها ما يعادل سكان بريطانيا .

مستقبل السكان:

إن استمرار زيادة السكان على هذا النحو يدل على أن سكان الكرة الأرضية سيزيدون فى الأعوام الثلاثين القادمة بمقدار يتراوح ما بين ١١٧٤ مليون نسمة و١٥٣٦ مليون نسمة ؛ أى أن العالم سيزيد فى ثلث القرن القادم أكثر من زيادته منذ فجر التاريخ حتى عام ١٩٠٠ ميلادية .

الاتجاهات السكانية فى العالم :

ذكرنا فيما تقدم أن زيادة السكان لم تجر بنسبة واحدة فى العالم ، بل اختلفت فى القارات المختلفة . وتتفاوت هذه الزيادة بين أقطار القارة الواحدة ، كما أنها تتباين فى القطر الواحد بين جهة وأخرى .

وقد كشفت البحوث العلمية عن مدى التغيرات التى يتعرض لها السكان من ناحية عددهم وتكوينهم ، وحددت الأسباب التى تؤدى إلى هذه التغيرات .

الفصل الثانى

عوامل التغيرات السكانية

يتعرض أى مجتمع إلى تغيرات فى عدد سكانه ، فيزداد هذا العدد أو يتناقص أو يستقر على حالة واحدة . وكذلك يتعرض السكان إلى تغير فى نسبة الذكور والإناث[1] وفى نسب فئات العمر فيه . وللتغير فى نسب فئات العمر أهمية خاصة من حيث مستوى المعيشة فى المجتمع . فالسكان من حيث إنتاجهم واعتمادهم على الغير ينقسمون إلى فئات ثلاث :

(ا) الأطفال (من سنة إلى ١٤ سنة) .

(ب) الشباب (من ١٥ سنة إلى ٤٩ سنة) .

(ح) الشيوخ (من ٥٠ سنة إلى ٧٠ سنة) .

والفئة الثانية هى القسم المنتج من السكان ، أما الفئتان الأولى والثالثة فيكونان القسم الذى يعتمد على إنتاج غيره من أفراد الفئة الثانية .

ويتوقف المستوى الاقتصادى فى المجتمع إلى حد كبير على نسبة كل من هذه الفئات الثلاث إلى مجموع السكان . فإذا كانت نسبة المنتجين أكثر من الفئتين الأخريين ارتفع المستوى الاقتصادى ، وإذا قلت نسبتهم انخفض هذا المستوى.

---

(١) فى بعض المجتمعات يزيد عدد الذكور على عدد الإناث وفى بعضها الآخر نجد العكس . وقد تزيد نسبة أحد الجنسين على الجنس الآخر فى فئة من فئات العمر ولكنها تقل عنها فى فئة أخرى ، ولاختلاف هذه النسب أثر كبير فى مشكلات المجتمع الاقتصادية والاجتماعية .

ويرجع التغير السكانى إلى ثلاثة عوامل هى :

(ا) الوفيات .

(ب) المواليد .

(ح) الهجرة .

(ا) الوفيات :

إذا ذكرنا نسبة الوفيات العامة فى أى مجتمع من المجتمعات فإننا نقصد متوسط عدد المتوفين لكل ١٠٠٠ من سكان ذلك المجتمع . وتختلف هذه النسبة اختلافا كبيراً فى دول العالم حسب إحصاءات عام ١٩٤٧ كما يتضح من الجدول الآتى رقم (٣) .

جــــدول (٣)

نسبة الوفيات فى الألف من السكان

أكثر أقطار إفريقيا	أقطار آسيا الوسطى والجنوبية	أمريكا الجنوبية	اليابان	أوروبا	الولايات المتحدة الأمريكية
٢٥ — ٣٠	٣٠ — ٣٥	١٧	١٥	١١ — ١٥	حوالى ١٠

وإذا حاولنا معرفة نسب الوفيات فى كل فئة من فئات العمر [١] فإننا نجد فرقاً كبيراً فى هذه النسب ، وتكاد تكون أعلى نسبة هى بين الأطفال الرضع الذين تقل أعمارهم عن عام ، ثم تتناقص النسبة كثيراً فى كل فئة كلما زاد العمر حتى تصل نسبة الوفاة أدناها فى الفئة التى تتراوح أعمارها ما بين ٢٠ سنة و ٢٤ سنة ، ثم تأخذ نسبة الوفاة فى الزيادة كلما تقدمت السن بعد ذلك حتى تبلغ أقصاها فى الفئات الكبيرة السن أى ٦٠ سنة فأكثر .

(١) يقسم السكان عادة إلى فئات من الأعمار كل منها ٥ سنوات ، فيقال فئة أقل من ٥ سنوات ، وفئة ٥ — ٩ سنوات ، ولفئة ١٠ — ١٤ سنة ، وهكذا .

ويمكن اتخاذ نسبة الوفيات بين الأطفال [1] الرضع مقياساً دقيقا لمعرفة المستوى الصحى فى المجتمع . فكلما انخفضت هذه النسبة كان ذلك دليلا على ارتفاع مستوى الصحة العامة بين السكان جميعاً . ويبين الجدول الآتى رقم (٤) هذه النسبة فى بعض دول العالم :

جدول (٤)

نسبة الوفيات بين الرضّع فى بعض دول العالم فى عام ١٩٤٧

اسم الدولة	نسبة وفيات الأطفال الرضع فى كل ١٠٠٠ من الأطفال
(أ) دول ذات نسب منخفضة للوفيات :	
السويد	٢٥
الولايات المتحدة الأمريكية	٣٢
انجلترا وويلز	٤٣
كندا	٤٥
(ب) دولتان فيهما نسبة متوسطة للوفيات :	
اليابان	٧٦
المجر	١٠٢
(ح) دول ذات نسبة عالية للوفيات :	
مصر	١٣٢
الهند	١٤٥
شيلى	١٦٠

(١) نسبة وفيات الأطفال الرضع = متوسط عدد المتوفين فى السنة من كل ١٠٠٠ من الأطفال الذين تقل أعمارهم عن عام .

أسباب ارتفاع نسب الوفيات فى بعض الدول :

دلت الدراسات التى أجريت فى كثير من الدول على وجود علاقة سببية مباشرة بين المستوى الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع و بين نسبة الوفيات فيه . فارتفاع نسبة الوفيات فى أى مجتمع يقترن دائما بدخل منخفض للفرد وبارتفاع فى نسبة الأمية ، وباشتغال نسبة كبيرة من الذكور فى الزراعة ، و بقلة عدد الأطباء بالنسبة إلى مجموع السكان . و بعكس ذلك تمتاز الدول ذات النسب المنخفضة فى الوفيات ، بارتفاع فى متوسط دخل الأفراد ، وانخفاض فى نسبة الأمية ، واتساع فى النشاط الصناعى و بنسبة معقولة للأطباء لكل ألف من السكان .

ولا تخلو الجهات ذات نسب الوفيات العالية من أو بئة وأمراض معدية تنتابها بين فترات غير متباعدة ، وتسبب نسبة كبيرة من الوفيات العامة . فنى الهند مثلا كثيراً ما تنتشر عدوى الكوليرا ، والجدرى ، والطاعون فتحصد الأرواح حصداً . ومن الأمراض المتوطنة هناك الملاريا ، ويقدر عدد من يصابون بها سنويا نحو مائة مليون شخص يموت منهم كل عام نحو مليونين من الأنفس . هذا فضلا عن المجاعات التى كانت تجتاح الهند والصين إذا طغت مياه الأنهار على الأراضى الزراعية ، أو إذا قلت الأمطار . وقد حدث أن مجاعة واحدة فى البنغال قضت على عشرة ملايين من الأنفس .

ولم تكن أوروبا منذ قرنين بأحسن حالا من البلاد ذات نسب الوفيات العالية اليوم ؛ إذ كانت الشعوب الأوروبية تتعرض إلى مجاعات دورية نتيجة لسوء المواصلات واعتماد كل مجتمع على الحاصلات التى تجود بها تربته ، وكان العدد الأكبر من أفراد الشعب يعانون نقصا فى غذائهم على مدار السنة . كما كانت أوروبا فى العصور الوسطى أيضا مرتعا للأوبئة ، ففى عام ١٣٤٨ قضى الطاعون على ربع سكان تلك القارة ولم تنقطع الأوبئة طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر ولا سيما وباء الجدرى والتيفويد .

ظهور المدن وأثره فى زيادة الوفيات :

وكان ظهور المدن فى أول أمرها سبباً من أسباب ارتفاع الوفيات . وكانت نسبة الوفيات فى المدن الأمريكية والأوروبية تزيد على نسبتها فى الجهات الريفية حتى آخر القرن التاسع عشر نتيجة عوامل كثيرة أهمها :

(١) تزاحم السكان فى المدن .

(٢) سوء الحالة الصحية فى البيئات الصناعيـة ؛ إذ لم تراع وقتئذ شروط التهوية أو الإضاءة .

(٣) طول ساعات العمل ؛ إذ كان العامل يقضى ساعات طويلة فى عمل شاق مضن ، كما كان يتعرض لأخطار كثيرة .

إجراءات قللت من الوفيات :

ولـكن سرعان ما هبطت نسبة الوفيات فى المدن فى أواخر القرن التاسع عشر بفضل مراعاة الشروط الصحية فى تخطيط المدن ، وبسبب التطورات الاقتصادية والاجتماعية ، التى حققت للعامل والصانع مستوى من المعيشة تتوافر فيه أسباب الصحة ، فهبطت الوفيات بين الأطفال أولا ، ثم تدرج الهبوط فى بقية فئات العمر . وتتراوح نسب الوفيات فى أوروبا اليوم ما بين ١١ و ١٥ فى الألف من السكان كما عرفت من الجدول رقم (٣) .

ويلاحظ أن الجهات الـكثيرة الوفيات تسلك نفس الطريق الذى سلـكته أوروبا منذ قرن مضى ، فقد أخذت تلك الجهات :

(ا) تعنى بالشئون الصحية العامة .

(ب) وأدركت حق الطبقات الفقيرة فى حياة إنسانية كريمة .

(حـ) وشرعت فى تطبيق سياسة الإصلاح الاجتماعى .

(د) وأعدت تشريعات اجتماعية لرعاية العمال ولا سيما الأطفال والنساء العاملات .

وكان من أثر هذا النشاط أن أخذت نسب الوفيات فى هبوط سريع بين الشعوب التى كانت تعرف فى الماضى بالشعوب المتأخرة ، وبلغ هبوط الوفيات فى الهند واليابان فى الخمسين سنة الأخيرة نحو ٥٠٪ عما كانت عليه من قبل ، ويترتب على هذا الهبوط فى الوفيات ارتفاع فى متوسط طول العمر بين سكان تلك الجهات ، فوصل إلى نحو ٣٨ سنة للذكور و ٤٠ سنة للإناث ، بعد أن كان لا يزيد على الثلاثين عاما. وما زال مجال التحسن كبيراً وبخاصة إذا عرفت أن متوسط طول العمر فى الولايات المتحدة الأمريكية ٦٧ سنة للذكور و ٧٠ سنة للإناث ، وفى انجلترا ٦٦ سنة للذكور و ٧٠ سنة للإناث ، وفى اليابان ٥٦ سنة للذكور و ٦٠ سنة للإناث . ومن الطبيعى أنه كلما قلت الوفيات — ولا سيما فى فئات العمر الأولى — ارتفع متوسط طول العمر . ومتوسط طول العمر فى مصر اليوم ٣٨ سنة للذكور و ٤٠ سنة للإناث ، وهو آخذ فى الزيادة بفضل انخفاض نسبة الوفيات فيها .

ويمكننا أن نستنتج فى النهاية أن نقص نسبة الوفيات يؤدى إلى زيادة سريعة فى السكان .

(ب) نسبة المواليد :

هناك مقاييس مختلفة لمعرفة نسبة المواليد فى أى دولة ؛ ولعل الشائع من هذه المقاييس هو معرفة نسبة المواليد العامة فى كل ألف من السكان . ويبين الجدول الآتى رقم (٥) نسبة المواليد العامة فى بعض دول العالم :

جـــدول (٥)

نسبة المواليد العامة فى بعض دول العالم عام ١٩٤٧

الجهـــة	النسبة العامة للمواليد
الهنـــد	٤٥
مصر	٤٣
البرازيل	٤٠
اليابان	٣٠
الولايات المتحدة الأمريكية	٢٤
انجلترا	١٨
فرنسا	١٣

وقد أثبتت الدراسات التى قام بها الإخصائيون أن الناس لا يختلفون فى قدرتهم على التوالد ، وأن الاختلاف فى النسبة العامة للمواليد يرجع إلى عوامل اقتصادية واجتماعية ، ومن أهم العوامل التى تخفض نسبة المواليد العامة ما يأتى :

١ — نشر التعليم .

٢ — زيادة دخل الأفراد .

٣ — السكنى فى المدن .

٤ — رفع مكانة المرأة وفتح مجال العمل لها .

٥ — إتاحة فرص التقدم للأفراد ليرفعوا مستوى معيشتهم .

٦ — رغبة الفرد فى أن يحيا حياة سعيدة .

وقد لوحظ أن هذه العوامل تجعل المتزوجين يرغبون رغبة قوية فى إنجاب نسل قليل العدد ليستطيعوا أن يوفروا له أسباب الصحة والتعليم والرفاهية . وقد ساعدهم على ذلك وجود وسائل كثيرة لضبط النسل تحقق لهم رغبتهم من حيث تحديد عدد أبنائهم على النحو لذى يريدون .

وكان من أثر هذا الاتجاه أن انخفضت نسبة المواليد فى أوروبا وأمريكا وأستراليا ونيوزيلنده واليابان ، فهبطت إلى ٢٠ أو ١٥ فى الألف من السكان ، وكانت منذ قرن واحد لا تقل عن ٤٠ أو ٥٠ فى الألف . أما بقية دول آسيا وإفريقيا فإن نسبة المواليدفيهما مازالت عالية جداً .

ويزداد نمو السكان كلما كان الفرق كبيراً بين النسبة العامة للمواليد والنسبة العامة للوفيات . فإذا كانت نسبة المواليد فى مجتمع ما ٣٥ فى الألف ونسبة الوفيات فيه ٢٠ فى الألف فإن نسبة الزيادة الطبيعية فى ذلك المجتمع تكون ١٥ فى الألف من السكان ، ويكون نمو السكان فى هذا المجتمع أكثر من نموهم فى مجتمع آخر تبلغ نسبة المواليد فيه ٢٥ فى الألف ونسبة الوفيات ١٥ فى الألف إذ تكون نسبة الزيادة الطبيعية فيه ١٠ فى الألف من السكان .

ومن الظاهرات السكانية الحالية ، أن العالم يزداد بنسبة كبيرة جداً ، فقد هبطت نسبة الوفيات بفضل اتصال العالم بشبكة من المواصلات ، و بفضل تقدم العلوم الطبية والصحية ، والتوسع فى نشر التعليم ، والأخذ بسياسة الأمان الإجتماعى ، وغيرها من العوامل التى حدت من حدوث الأو بئة والمجاعات . وفى نفس الوقت ، لم تهبط نسبة المواليد بين أ كثر من ثلثى سكان العالم ، فاتسع الفارق بين نسبة المواليد والوفيات وأصبح يضاف إلى سكان العالم كل يوم نحو ٧٠٫٠٠٠ نفس .

إذن لا بد من أن يأتى اليوم الذى يواجه فيه العالم مشكلة خطيرة ، لعلها أخطر مشكلة واجهها حتى اليوم . فكيف يستطيع توفير الغذاء الكافى لذلك العدد الضخم من السكان الذى يضاف إليه كل يوم ، و بخاصة أن حوالى نصف سكان العالم ، لا يحصلون اليوم على الغذاء الضرورى للمحافظة على حيويتهم وصحة أبدانهم ؟ وسيواجه العالم مشكلة أخرى هى مشكلة توفير العمل لهؤلاء السكان الذين يضافون إليه كل يوم .

(ح) الهجرة :

الهجرة عامل آخر يؤثر فى زيادة السكان ونقصهم ، فتحدث الزيادة فى السكان ، إذا كانت الهجرة إلى داخل المجتمع ، ويحدث النقص فيهم إذا كانت الهجرة من المجتمع إلى الخارج . ولقد كان للهجرة أثر عظيم فى التغير السكانى قبل أن تقيدها قوانين وتشريعات واعتبارات سياسية ظهرت فى القرن العشرين . فالدول الفسيحة الأرجاء ، الغنية بمواردها ، قد أوصدت أبوابها فى وجه من يطلبون الرزق ، أو ينشدون الحرية السياسية أو الدينية .

وهناك نوع آخر من الهجرة ، يعرف بالهجرة الداخلية ، يحدث بين أجزاء المجتمع الواحد فلا يؤثر فى نسبة نمو السكان هذا المجتمع . ومن أهم تيارات الهجرة الداخلية ، تيار الهجرة من الريف إلى المدن ، ولا سيما فى المجتمعات الزراعية ، حين تدخل فى دور التصنيع . فالمدن تجذب إليها ذوى الطموح من الشباب ، فيهرعون إليها رغبة فى تحسين مستوى معيشتهم ، أو بسبب الكساد الاقتصادى فى الريف .

وكثيراً ما تنشأ مشكلات خطيرة عن الهجرة المتلاحقة إلى المدن . فقد تعجز فيها حركة التعمير والإنشاء عن إشباع حاجات هؤلاء المهاجرين إليها ، فتضيق بهم المساكن أو المصانع أو المرافق العامة ، وينتشر بينهم التعطل وقد ينتشر فيهم الانحراف والإجرام .

الفصل الثالث

السكان فى مصر

مرت مصر فى مراحل تاريخية مختلفة ، وامتازت بعض فترات من تاريخها بالاستقرار والرخاء والتقدم الاجتماعى فحدث فى هذه الفترات التاريخية نمو سريع فى السكان . ويقدر بعض المؤرخين أن سكان مصر وصلوا إلى عشرين مليونا فى بعض عصورها الزاهرة . وكذلك مرت على مصر عصور مظلمة كان يسودها الاضطراب السياسى ، والفساد الاجتماعى ، والكساد الاقتصادى ، فكان لهذه الحالة أثرها على الشعب إذ ساد القلق وانتشرت الأمراض وأدى ذلك إلى ارتفاع فى نسبة الوفيات وتناقص فى عدد السكان من عام إلى آخر حتى وصل عددهم فى بعض هـذه العهود إلى مليونين فقط .

وكانت مصر أسبق الأمم فى إجراء تعدادات لسكانها إذ عنيت بها منذ فجر حضارتها ، ولكن لا يوجد لدينا ما يثبت دقة هذه التعدادات . وكانت تجرى فى فترات متباعدة فلا يمكن الربط بينها أو تحليلها . وعلى ذلك سنشير هنا إلى الاتجاه السكانى فى مصر فى تاريخها الحديث فقط .

وهناك تقديران للسكان قام بهما علماء فنيون ، وأشرف على التقدير الأول منهما المجمع العلمى الفرنسى فى عام ١٨٠٠ وقدر عدد السكان عندئذ بمقدار ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ من الأنفس ، وأما التقدير الثانى فكان فى عام ١٨٤٦ وقد حدد على أساس المساكن فبلغ عدد السكان عندئذ ٠٠٠ر٥٠٠ر٤ نسمة .

أما بعد ذلك فتوجد نتائج التعدادات التى قامت بها الحكومة المصرية واستخدمت فيها الوسائل الحديثة لجمع بيانات عن كل فرد من أفراد الشعب ، مثل الجنس ، والسن ، والدين ، والحالة المدنية ، وما إلى ذلك . وكان التعداد الأول فى عام ١٨٨٢ ، وتلاه تعداد آخر فى عام ١٨٩٧ أى بعده بمدة ١٥ سنة و يعد أول تعداد يمكن الاعتماد عليه فى الموازنة بينه و بين التعدادات التى تلته . وقد توالت التعدادات بعد ذلك كل عشر سنوات فأجريت على التوالى فى أعوام ١٩٠٧ ، ١٩١٧ ، ١٩٢٧ ، ١٩٣٧ ، ١٩٤٧ وسيكون التعداد التالى فى عام ١٩٥٧ .

و يبين الجدول رقم (٦) عدد السكان فى سنوات هذه التعدادات ، ومنه يتضح أن السكان فى تزايد على مر السنين ، وأن عددهم قد اقترب من الضعف فى الخمسين سنة الأخيرة (فيما بين ١٨٩٧ ، ١٩٤٧) ، وهذه زيادة يكاد لا يجاريها شعب آخر .

جـــــدول (٦) *

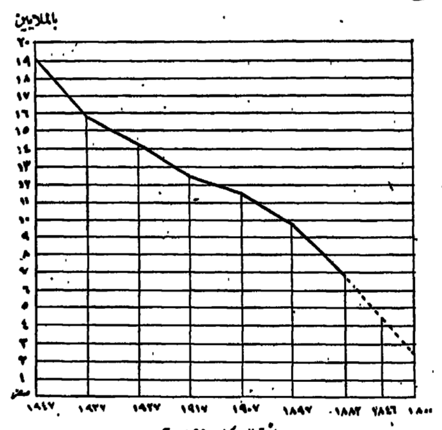
عدد السكان فى التعدادات ١٨٨٢ — ١٩٤٧

سنة التعداد	عدد السكان	الزيادة العددية بين كل تعدادين
١٨٨٢	٦٫٨٠٤٫٠٢١	٠٠٠ ٠٠٠ ٠
١٨٩٧	٩٫٧١٤٫٥٢٥	٢٫٩١٠٫٥٠٤
١٩٠٧	١١٫٢٨٧٫٣٥٩	١٫٥٧٢٫٨٣٤
١٩١٧	١٢٫٧٥٠٫٩١٨	١٫٤٦٣٫٥٥٩
١٩٢٧	١٤٫٢١٧٫٨٦٤	١٫٤٦٦٫٩٤٦
١٩٣٧	١٥٫٩٣٢٫٦٩٤	١٫٧١٤٫٨٣٠
١٩٤٧	١٩٫٠٢١٫٨٤٠	٣٫٠٨٩٫١٤٦

* الاحصاء السنوى للجيب عام ١٩٥١ . مصلحة الإحصاء والتعداد ، صفحة ١ .

ويجب أن نلاحظ أن بيانات التعدادات المصرية ليست دقيقة كل الدقة، ولكنها مع ذلك تعطى صورة إجمالية للاتجاه السكانى. أما عدم دقة التعدادات المصرية فترجع إلى أن الكثيرين من الناس لا يعنون بها وقت إجرائها، ولا يدركون قيمتها. ولكن المتعلمين يشعرون بأهميتها الآن مما يجعلنا نأمل أن تتوافر الدقة فى تعداد سنه ١٩٥٧ وما يليه من تعدادات.

أما ما امتاز به سكان مصر من نمو سريع مطرد منذ بداية القرن التاسع عشر فانه نتيجة للاستقرار السياسى بالنسبة لما كانت عليه الحال قبل ذلك، ولاسيا قبل الحملة الفرنسية، ودليل على التطور الاقتصادى والتقدم الصحى. ولكن هذا النمو السريع، كما يبدو بوضوح من الرسم البيانى رقم (١)، يقلق بال الاقتصاديين والاجتماعيين لأنهم يخشون من ضياع أثر الجهود الجبارة التى تبذل فى زيادة الإنتاج لرفع مستوى المعيشة لجميع السكان.



نمو السكان فى مصر
من سنة ١٨٠٠ إلى سنة ١٩٤٧

رسم بيانى رقم (١)

كثافة السكان :

ويقاس مدى ازدحام السكان فى المجتمع بمتوسط عدد الأفراد الذين يقيمون فى الكيلو متر المربع أو الميل المربع ، وتسمى هذه النسبة بكثافة السكان . وبما أن مساحة مصر تبلغ مليون كيلو متر مربع وأن الجزء الأكبر من هذه المساحة صحراء جرداء لا يقطنها إنسان ولا يفيد أحد منها شيئا ، أصبحت الكثافة الحقيقية للسكان فى مصر هى متوسط عدد السكان فى الكيلو متر المربع من الأراضى التى يقيم عليها المصريون أو يستغلونها فى الزراعة أو الصناعة أو التعدين . وعلى هذا الأساس كانت كثافة السكان فى مصر فى عام ١٩٠٧ هى ٣٦٠ نسمة فى الكيلو متر المربع . وزادت هذه الكثافة إلى ٣٨٦ نسبة فى الكيلو متر المربع فى عام ١٩١٧ ، ثم ارتفعت إلى ٤٦٣ نسمة فى الكيلومتر المربع فى عام ١٩٣٧ ، ووصلت إلى ٥٣٨ نسمة فى الكيلومتر المربع فى عام ١٩٥٠ . ويدل اطراد ارتفاع كثافة السكان فى مصر على أن الزيادة فى السكان تفوق الزيادة فى مساحة الأرض المستغلة . وقد عرفت أنه يخشى من هذه الزيادة لأنها قد تؤدى إلى انخفاض مستوى معيشة السكان .

وتفوق مصر فى كثافة سكانها أكبر البلاد الصناعية ، مع أن أكثر سكان مصر مازالوا يعيشون على الزراعة ، وتتطلب طبيعة الحياة الزراعية سكانا أقل مما تتطلبه الأعمال الصناعية . وقد عرفت كثافة السكان فى مصر فى عام ١٩٥٠ ، وكانت كثافة السكان فى ألمانيا فى نفس العام هى ١٩٥ نسمة فى الكيلو متر المربع ، وكانت فى انجلتره و ويلز ٢٠٧ نسمة فى الكيلو متر المربع ، وفى بلجيكا ٢٨٣ نسمة فى الكيلو متر المربع ، وفى هولاندة ٣١٢ نسمة فى الكيلو متر المربع ، وهى كلها أقل من كثافة السكان من مصر .

ومن الملاحظ فى مصر أن الريفيين يهرعون إلى المدن سعياً وراء عمل يرتزقون منه ، فأصيبت المدن بتخمة فى كثير من جهاتها . فمع أن الزيادة فى سكان الجمهورية كلها بين تعدادى سنتى ١٩٣٧ و ١٩٤٧ قد بلغت ٢٠ ٪ فإن زيادة سكان القاهرة

فى هذه المدة كانت ٦٠ ٪ ، وزيادة سكان بندر الجيزة فى المدة نفسها كانت ٧٥٪، وزيادة سكان السويس ١١٦ ٪ . ومن البديهى أن أكثر هذه الزيادات كان بسبب الهجرة من الريف إلى هذه المدن . وقد ازدحمت المدن بسكانها وأصبحت كثافة سكان القاهرة مثلا فى عام ١٩٤٧ نحو ١٢٫٠٠٠ نسمة فى الكيلومتر المربع ، وهى ليست موزعة توزيعا متساويا فى جميع جهاتها بل تقل عن ذلك فى « أحياء » الزمالك وقصر الدوبارة ومصر الجديدة وترتفع فى «أحياء » أخرى كعابدين حيث تبلغ ٢٣٫٠٠٠ نسمة فى الكيلومتر المربع ، وفى السيدة زينب ٤٨٫٠٠٠ نسمة فى الكيلومتر المربع ، وفى الموسكى ٥٩٫٠٠٠ نسمة فى الكيلو متر المربع ، وفى باب الشعرية ١١١٫٠٠٠ نسمة فى الكيلومتر المربع . وتدل هذه الأرقام على مستوى المعيشة بين هؤلاء السكان ، إذ يتعذر فى مثل هذه الظروف إيجاد المساكن الصحية أو توفير المرافق العامة كالمدارس ووسائل المواصلات الكافية المناسبة والملاعب الشعبية والمستشفيات . ولهذا نجد فى المدن مشكلات معقدة فى بعض أجزائها .

أسباب الزيادة السريعة فى سكان مصر :

أشرنا فى فصل سابق إلى أن الزيادة السريعة فى السكان تنشأ عن عوامل ثلاثة هى : الهجرة والوفيات والمواليد .

١ — الهجرة : ليس لعامل الهجرة أثر يذكر فى زيادة سكان مصر ، لأن الهجرة إلى داخل مصر بسيطة نسبيا وآخذة فى التناقص منذ أوائل القرن العشرين . فكما يتضح من الجدول الآتى رقم (٧) كان عدد الأجانب ٢٢١٫٠٠٠ فى عام ١٩٠٧ وكانت نسبتهم إلى السكان هى ٢ ٪ ، ثم أخذت هذه النسبة فى التناقص حتى وصلت إلى ٠٫٧٦ ٪ فى عام ١٩٤٧ .

جـــــدول رقم (٧)

الأجانب فى مصر بين سنتى ١٩٠٧ و ١٩٤٧

السنة	العدد	نسبتهم المئوية إلى السكان.
١٩٠٧	٢٢١٠٠٠	٢
١٩١٧	٢٠٥٩٤٩	١ر٦
١٩٢٧	٢٢٥٦٠٠	١ر٦
١٩٣٧	١٨٦٥١٥	١ر٢
١٩٤٧	١٤٦٠٠٠	٠ر٧٦

وبما أن نسبة الأجانب الآن حوالى ثلاثة أرباع الواحد فى كل مائة فإنه يمكننا أن نصرف النظر عن هذه الهجرة كعامل من عوامل التأثير فى الموقف السكانى فى مصر .

وكذلك الهجرة إلى الخارج ليس لها أثر يذكر فى الموقف السكانى بمصر لأن المصريين لا يرغبون فى الهجرة إلى البلاد الأجنبية والإقامة فيها ، وذلك لعوامل اجتماعية وأسباب ثقافية نشأت عن طبيعة الظروف السياسية التى مرت بها البلاد . أما وقد تغيرت الأحوال ودخلت مصر عهداً جديداً فمن المؤكد أن عدداً كبيراً من شباب مصر المتعلم يتوثب إلى أن يشق له طريقاً إلى المجد ولن يعبأ بالمسافات أو اختلاف ظروف المعيشة ، لو تفتحت أمامه أبواب الهجرة إلى البلاد الشقيقة أو البلاد الأخرى الأجنبية فيفيد المجتمع الذى يهاجر إليه ، ويستفيد هو من خبرته وتجاربه ، ويكون رسول تفاهم وسلام بين البلدين .

٢ — الوفيات : ظلت نسبة الوفيات نحو ٣٠ فى الألف من السكان منذ عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٤٥ وهى عالية جدا إذا قورنت بنسب الوفيات فى البلاد المتقدمة . وقد بلغت نسبة وفيات الرضع فى مصر فى هذه الفترة (نسبة الوفيات من الأطفال فى العام الأول من حياتهم إلى كل ١٠٠٠ من المواليد الأحياء فى ذلك العام) بين ١٤٠ و ١٧٠ فى الألف .

ومع ذلك فإن نسبة الوفيات العامة ونسبة الوفيات الرضع أخذت فى النقصان منذ عام ١٩٤٥ . فقد هبطت نسبة الوفيات العامة فى السنوات الأخيرة إلى حوالى ١٨ فى الألف وهبطت نسبة الوفيات الرضع إلى حوالى ١٢٠ فى الألف . ويرجع هذا الانخفاض الكبير فى نسب الوفيات إلى التوسع فى الخدمات الصحية والاجتماعية . وفى مقدمة هذه الخدمات ما يلى :

(ا) الدقة فى إجراءات الحجر الصحى لمنع تسرب الأمراض الوبائية إلى داخل الجمهورية .

(ب) العناية بتطعيم الأطفال دوريا لوقايتهم من الجدرى وحقنهم للوقاية من الدفتريا .

(حـ) إنشاء مراكز رعاية الطفولة والأمومة للعناية بالأمهات أثناء الحمل والوضع ولرعاية الأطفال فى سنواتهم الأولى .

(د) إنشاء عدد كبير من المراكز الاجتماعية الريفية فى كثير من القرى .

(هـ) التوسع فى إنشاء المستشفيات الحكومية وتيسير العلاج بدون مقابل .

(و) زيادة الأطباء زيادة مطردة . وقد بلغ عددهم الآن نحو ٦٠٠٠ طبيب .

(ز) توصيل مياه الشرب النقية إلى كثير من القرى التى كانت محرومة منها .

(ح) الإفادة من التقدم الحديث فى فنى الطب الوقائى والعلاجى ، وتوافر الأمصال التى تكسب الجسم مناعة ضد انتشار الأوبئة . وتوافر مركبات الد . د . ت والبنسلين والمركبات الأخرى . وقد قضت هذه المركبات على خطر كثير من الأمراض .

(ط) انتشار التعليم وزيادة الوعى الصحى بين الجماهير .

وقد أدت هذه العوامل إلى خفض نسب الوفيات ، فتوفر فى كل عام من الأعوام الأخيرة ما يقرب من ٥٠ ٪ من العدد الذى كان يموت من قبل ونشأت عن هذه الظاهرة زيادة كبيرة فى السكان تضاف إلى مجموع عددهم فى كل عام .

ومن الاتجاهات المهمة فى ظاهرة انخفاض الوفيات ، أن هذا الانخفاض لا يطرد بنسبة واحدة فى جميع فئات العمر . فالانخفاض يبلغ أشده بين الصبية والشباب ويبلغ أقله بين الأطفال وفى فئات العمر المتقدمة (فوق سن الخمسين سنة) كما يتضح من الجدول الآتى رقم (٨) الذى يبين عدد الوفيات فى كل فئة من فئات العمر ونسبتهم فى الألف فى عامى ١٩٢٧ و ١٩٤٩ .

جدول رقم (٨)

السكان وعدد الوفيات فى كل فئة من فئات العمر فى عامى ١٩٢٧ و ١٩٤٩

فئات السن	١٩٢٧			١٩٤٩		
	عدد السكان (مقدرا لمنتصف السنة)	عدد الوفيات	النسبة فى الألف من السكان	عدد السكان (مقدرا لمنتصف السنة)	عدد الوفيات	النسبة فى الألف من السكان
أقل من ٥ سنوات	٢٠٠٣٢٠٠	١٩٢٤٩٢	٩٦ر١	٢٧١٠٤٠٠	٢٣٥٠٦٢	٨٦ر٧
٥ — ٩	١٨٥٩٩٠٠	١٣٤٧١	٧ر٢	٢٥١٦٦٠٠	١٠٠٥٦	٤ر٠
١٠ — ١٩	٣١٨٨٩٠٠	١٥٢٤٥	٤ر٨	٤٣١٤٦٠٠	١٢٦٣٤	٢ر٩
٢٠ — ٢٩	٢٢١٣٤٠٠	١٦١٥١	٧ر٣	٢٩٩٤٨٠٠	١٢٩٩٥	٤ر٣
٣٠ — ٣٩	٢٠٣٢٤٠٠	١٨٥٩٠	٩ر١	٢٧٤٩٩٠٠	١٧١٩٨	٦ر٣
٤٠ — ٤٩	١٥٣٣٧٠٠	١٥٦٥٤	١٠ر٢	٢٠٧٥٢٠٠	١٨٦٦٧	٩ر٠
٥٠ — ٥٩	٩٤٠٨٠٠	١٤٠٦٨	١٥ر٠	١٢٧٢٩٠٠	١٨٢٣٣	١٤ر٣
٦٠ — ٦٩	٥٥٥٥٠٠	١٥٤٠٠	٢٧ر٧	٧٥١٦٠٠	٢٠٢٥٣	٢٦ر٩
٧٠ — ٧٩	٢٢٦٣٠٠	١٦٢٥٤	٧١ر٨	٣٠٦٢٠٠	٢٠٦٣٦	٦٧ر٤

ونسطيع أن نستنتج من الجدول رقم (٨) أن نسبة الوفيات حدث فيها انخفاض فى فئات السن المختلفة فيما بين سنتى ١٩٢٧ و١٩٤٩ . ونلاحظ من هذا الجدول أيضا أن نسبة الوفيات عالية بوجه عام فى الأطفال الأقل من ٥ سنوات وعاليه أيضا فى السن الكبيرة (أى الشيوخ) ، ويؤدى هذا التباين فى انخفاض نسب الوفيات إلى تغيير فى البناء السكانى . فتزيد نسبة السكان فى الذين فى سن الصبى والشباب عنها فى سن الطفولة والسن الكبيرة ، أى أن الأيدى العاملة المنتجة تزيد نسبتها على المعتمدين سواء أكانوا أطفالا أم شيوخا . ولهذا التغير فى البناء السكانى أثر على مشكلات الإنتاج ، والاستهلاك ، والتعطل ، والرعاية الاجتماعية ، وما إلى ذلك . ونشير هنا بصفة خاصة إلى أن هذا التغير فى البناء السكانى يؤثر على نسبة الوفيات العامة بأن يزيدها انخفاضا ، لأن أكثرية الشعب تقع فى فئات العمر ذات النسبة المنخفضة فى الوفيات ، ويؤثر كذلك على نسبة المواليد فيزيدها ارتفاعا نتيجة تضخم نسبة المنجبين . وينشأ عن هذين الاتجاهين اطراد فى زيادة السكان .

٣ — المواليد : عرفت مما سبق أن زيادة السكان تنشأ عن الفرق بين الوفيات والمواليد ، وقد اتضح لك أن نسبة الوفيات فى مصر أخذت فى الهبوط فى السنوات الأخيرة .

وتدل الإحصاءات الصحية على أن نسبة المواليد لم تتغير تغيرا كبيرا فى السنوات الأخيرة . ويبين الجدول رقم (٩) :

(ا) أن نسبة المواليد فيما بين سنتى ١٩١٧ و ١٩٥١ كانت تتراوح بين ٣٩٫٦ فى الألف و ٤٤٫٥ فى الألف .

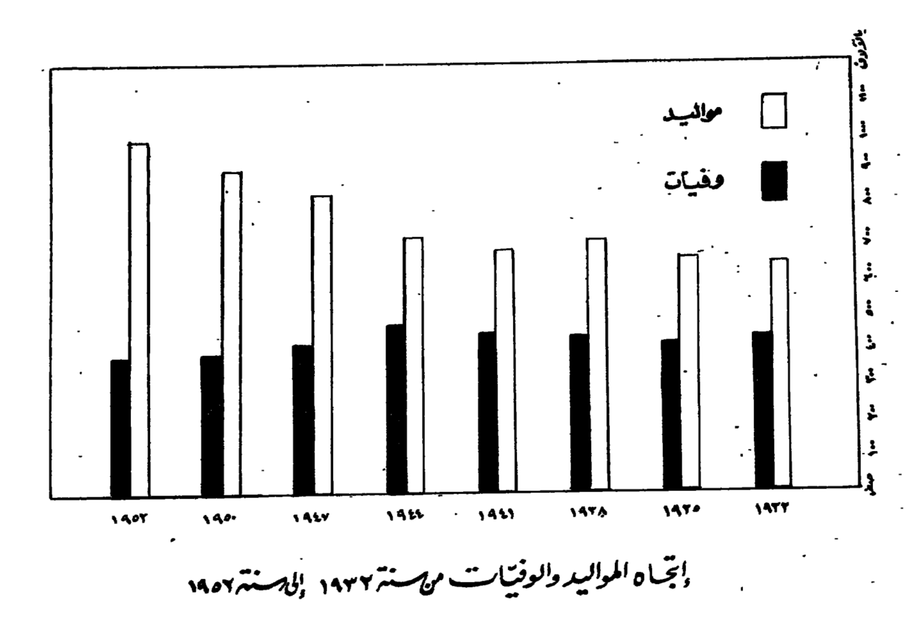
(ب) أن الفرق كبير بين نسبة المواليد ونسبة الوفيات ، وأن الزيادة الطبيعية فى السكان قد اتجهت نحو الارتفاع فى السنوات الأخيرة نتيجة هبوط نسبة الوفيات [illegible]

جدول رقم (٩)

نسب الزيادة الطبيعية فى السكان

السنة	نسبة المواليد فى الألف من السكان	نسبة الوفيات فى الألف من السكان	نسبة الزيادة الطبيعية فى الألف من السكان
١٩١٧	٤٠ر١	٢٩ر٤	١٠ر٧
١٩٢٠	٤٢ر٢	٢٨ر٠	١٤ر٢
١٩٢٣	٤٣ر١	٢٥ر٨	١٧ر٣
١٩٢٦	٤٤ر٢	٢٦ر٧	١٧ر٥
١٩٢٩	٤٤ر٢	٢٧ر٦	١٦ر٦
١٩٣١	٤٤ر٥	٢٦ر٦	١٧ر٩
١٩٣٤	٤٢ر٢	٢٧ر٨	١٤ر٤
١٩٣٧	٤٣ر٢	٢٧ر٢	١٦ر٠
١٩٤٠	٤١ر٦	٢٦ر٥	١٥ر١
١٩٤٣	٣٩ر٦	٢٨ر٣	١١ر٣
١٩٤٦	٤٢ر٧	٢٥ر٩	١٦ر٨
١٩٤٩	٤١ر٨	٢٠ر٦	٢١ر٢
١٩٥١	٤٣ر٠	١٨ر٠	٢٥ر٠

وحين تدرس الرسم البيانى رقم (٢) يظهر لك بوضوح تام ذلك الفرق بين مجموع المواليد ومجموع الوفيات فى عشرين سنة بين ١٩٣٢ و ١٩٥٢ .



إتجاه المواليد والوفيات من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٥٢

ويرجع ارتفاع نسبة المواليد العامة فى مصر إلى عوامل أهمها :

١ — أن نسبة الإناث اللاتى فى سن الحمل إلى مجموع الإناث نسبة عالية تبلغ نحو ٥٠ ٪

٢ — أن نسبة المتزوجات من هؤلاء الإناث كانت ٧٣٪ فى عام ١٩٣٧ وارتفعت إلى ٧٤٫٧ ٪ فى سنة ١٩٤٧ وهى أيضا نسبة عالية إذا قورنت بنسب المتزوجات فى البلاد الأخرى .

٣ — أن الزواج فى مصر يحدث فى الغالب فى سن مبكرة تسمح بفترة طويلة للإنجاب . ففى عام ١٩٥٠ كان مجموع المتزوجات ٢٨٧٩٢٩ وكانت أعمارهن عند الزواج كما يبينها الجدول رقم (١٠) . ومن هذا الجدول يتضح أن معظم الزيجات كانت فى سن تسمح بالحمل والوضع فترة طويلة جدا :

جـــــدول رقم (١٠)

توزيع المتزوجات عام ١٩٥٠ حسب أعمارهن

السن	عدد الزيجات	النسبة المئوية للمجموع كله
أقل من ٢٠ سنة	١٢٢١٠٨	٤٢٫٤١
٢٠ إلى ٢٤ «	٧٩٩٩٥	٢٧٫٧٨
٢٥ « ٢٩ «	٤٢٢٥٤	١٤٫٦٧
٣٠ « ٣٤ «	٢٠٨٠٧	٧٫٢٣
٣٥ « ٣٩ «	١٢٣٨٧	٤٫٢٠
٤٠ « ٤٤ «	٥٦٠٢	١٫٩٥
٤٥ « ٤٩ «	٢٩٣٦	١٫٠٢
أكثر من ٤٩	١٨٠٤	٠٫٦٤
مجموع الزيجات	٢٨٧٩٢٩	١٠٠

٤ — أن أكثر المتزوجات لا ينظمن نسلهن بل ينجبن أكبر عدد تسمح به الطبيعة . ففى السنوات الأخيرة لوحظ فى ترتيب المواليد أن نحو ٣٣٥ من كل ١٠٠٠ يبلغ ترتيبهم الخامس أو أكثر ، أى أن أمهاتهن قد أنجبن خمسة أطفال على الأقل . و بما أن أكثر المتزوجات فى سن صغيرة فإن متوسط عدد المواليد للأم حين تصل إلى سن الخمسين يكون كبيرا .

نوع السكان

إن نوع السكان من حيث دياناتهم ، وتعليمهم ، وتوزيع أعمارهم ، ومستواهم الاقتصادى ، ناحية لها أثر كبير فى المسألة السكانية . وسنلخص هنا التوزيع النوعى للسكان فى مصر :

١ — توزيع سكان مصر حسب الديانة :

يتألف الشعب المصرى من الديانات الثلاث الكبرى ، وتدين الأغلبية الساحقة بالإسلام وتليها المسيحية ثم اليهودية كما يتضح من الجدول الآتى رقم (١١) الذى يبين عدد من ينتمون إلى كل من هذه الديانات ونسبتهم إلى مجموع السكان فى التعدادين الأخيرين :

جـــدول رقم (١١) *

توزيع السكان حسب الديانة والنسبة المئوية

الديانة	العـدد		النسبة المئوية	
	١٩٣٧	١٩٤٧	١٩٣٧	١٩٤٧
مسلمون	١٤٥٥٢٦٩٥	١٧٣٩٧٦٠١	٩١ر٤	٩١ر٧
أقبـاط	١٠٨٥٢٨١	١٣٤٤٢٢١	٦ر٨	٧ر١
مسيحيون آخرون	٢١٨٦٨٩	١٥٧٣٦٣	١ر٤	٠ر٨
إسرائيليون	٦٢٩٥٣	٦٥٦٤١	٠ر٤	٠ر٤
عقائد أخرى وحالات غير مبينة	١٠٧٦	١٩٤١	٠ر٠	٠ر٠
الجملة ولا تشمل العربان الرحل	١٥٩٢٠٦٩٤	١٨ر٩٦٦٧٦٧	١٠٠	١٠٠

٢ — توزيع السكان حسب الحالة العلمية :

بذلت مصر جهودا جبارة عقب الحرب العالمية الأولى لتنشر التعليم بأنواعه ومستوياته المختلفة ولتمحو الأمية كذلك ، فضاعفت من ميزانية التعليم عدة مرات ، إذ كانت لا تبلغ نصف مليون من الجنيهات فى عام ١٩٢٣ ثم أصبحت نحو ٥٠ مليونا من الجنيهات فى عام ١٩٥٢ . ولكن على الرغم من ذلك كله ما زالت نسبة الأمية كبيرة وما زال عدد كبير من الأطفال الذين فى سن الدراسة لا يجدون معاهد كافية لتعليمهم . ولعل السبب فى عدم حل مشكلة التعليم حتى اليوم هو إلقاء عبء التعليم كله

(*) الإحصاء السنوى الجيب عام ١٩٥١ . مصلحة الإحصاء والتعداد ، ص ١٥ .

على عاتق الحكومة وحدها ، وكان ينبغى أن تسهم المؤسسات الأهلية بنصيب فى نشر التربية والتعليم . و يبين الجدول المقابل رقم (١٢) الحالة العلمية للسكان فوق سن الخامسة ، فيتضح لك منه عدد الأميين وعدد المتعلمين فى المستويات العلمية المختلفة ، ونسب هؤلاء وهؤلاء إلى مجموع السكان . و يظهر لك هذا الجدول أيضا أن مصر لا تزال فى حاجة إلى مجهود كبير فى سبيل نشر التعليم فيها .

جـــــدول رقم (١٢)

الحالة العلمية فى تعدادى عام ١٩٣٧ وعام ١٩٤٧ .

الحالة العلمية للسكان فوق الخامسة	١٩٣٧				١٩٤٧			
	ذكور		إناث		ذكور		إناث	
	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية	العدد	النسبة المئوية
أميون	٥٠٥٨٠٠٢	٧٣ ٪	٦١٨٣٧٣٠	٩٠ ٪	٥٢٤٨٩٨٦	٦٤ر٨ ٪	٦٨٢٥٣٠٥	٨٢ر٥ ٪
متعلمون :								
ملمون بالقراءة والكتابة	١٧١٠٠٥٣	٢٤ر٥ ٪	٦٥٤٦٢٣	٩ر٥٤ ٪	٢٢٦٥٩٢٨	٢٧ر٨ ٪	٩٢٣٨٩٠	١١ر٢ ٪
حملة شهادات أقل من متوسطة	١٠٤١٢٢	١ر٥ ٪	٢٣٩٠٧	ر ٣ ٪	١٤٥٤١٥	١ر٨ ٪	٥٣٤٨٢	ر٦ ٪
حملة شهادات متوسطة	٣٥٤٨٧	ر٥ ٪	٣٧١٥	ر٠٥ ٪	٩٦٦٣٩	١ر٣ ٪	١٦٨٠١	ر٢ ٪
حملة شهادات عالية	٣١٩٣٩	ر٤٢ ٪	٩٠٣	ر٠١٣ ٪	٥٢٠٣٦	ر٦ ٪	٣٤٧٦	ر٠٤ ٪
حملة شهادات من الخارج	٤٦٧١	ر٠٧ ٪	١٠٧٦	ر٠١٥ ٪	١٣٦٤	ر٠٢ ٪	٥٥٧	ر٠٠٧ ٪
حالات غير مبينة	٥٠١	٠٠٠٠٠	٣٩١	٠٠٠٠٠٠	٣٠١٧٨٨	٣ر٧ ٪	٤٤٦٢٩٣	٥ر٤ ٪
جملة السكان (ماعدا الأطفال دون سن الخامسة)	٦٩٤٤٧٧٥		٦٨٦٨٣٤٥		٨١١٢١٤٦		٨٢٦٩٨٠٤	

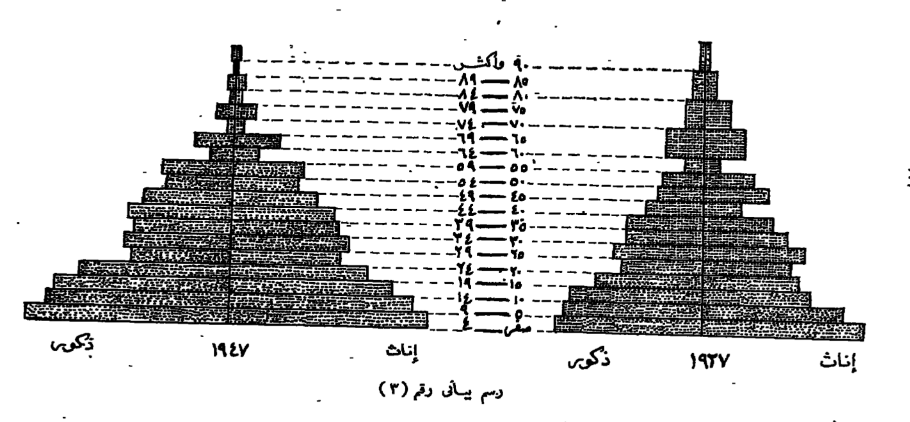
* التعداد العام للسكان لسنة ١٩٤٧ ، الجزء الثانى ، جداول عامة . مصلحة الإحصاء والتعداد . صفحة ٣

٣ — توزيع السكان حسب فئات العمر :

يختلف توزيع السكان حسب فئات العمر بين مختلف الشعوب تبعا لنسب المواليد والوفيات فى هذه الشعوب ، وتترتب على هذا الاختلاف نتائج بالغة الأثر فى المشكلات السكانية . فنسبة المعتمدين على غيرهم (أى الأطفال والشيوخ) إلى مجموع السكان لها أهمية فى الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، وكذلك نسبة المنتجين إلى مجموع السكان لها أهمية فى الإنتاج والاستهلاك . فكر فى هذه الأهمية .

ويوضح توزيع السكان حسب فئات العمر برسم بيانى على شكل هرم كما فى الرسم البيانى رقم (٣) . ويتألف هذا الهرم من درجات يعلو بعضها فوق بعض ، ويشير الجانب الأيمن منها إلى الإناث والجانب الأيسر إلى الذكور ، وترمز كل درجة من درجات الهرم إلى فئات سن معينة . فترمز أول درجة منها (أى قاعدة الهرم) إلى عدد الأطفال الذين تقل سنهم عن خمسة أعوام ، أما الدرجة الثانية من أسفل الهرم فترمز إلى فئة السن ٥ — ٩ سنوات وتعلو هـذه الدرجة فئة السن ١٠ — ١٤ وهكذا حتى ينتهى الهرم من أعلى بفئة السن التى تزيد على ٨٥ عاما . وبما أن طول كل درجة أو قصرها يتوقف على عدد الأفراد الذين فى فئة السن التى ترمز إليها الدرجة فإن شكل « هرم السكان » لأى شعب يتوقف على نسب توزيع الأعمار فى هذا الشعب . ويختلف أيضا هرم السكان للشعب الواحد بين فترة وأخرى إذا حدث تغيير فى نسب مواليده ووفياته كما يظهر فى الرسم البيانى رقم (٣) حين نوازن بين هرم السكان لعام ١٩٢٧ وهرم السكان لعام ١٩٤٧ .

هرم توزيع فئـــات العمر بمصر



رسم بياني رقم (٣)

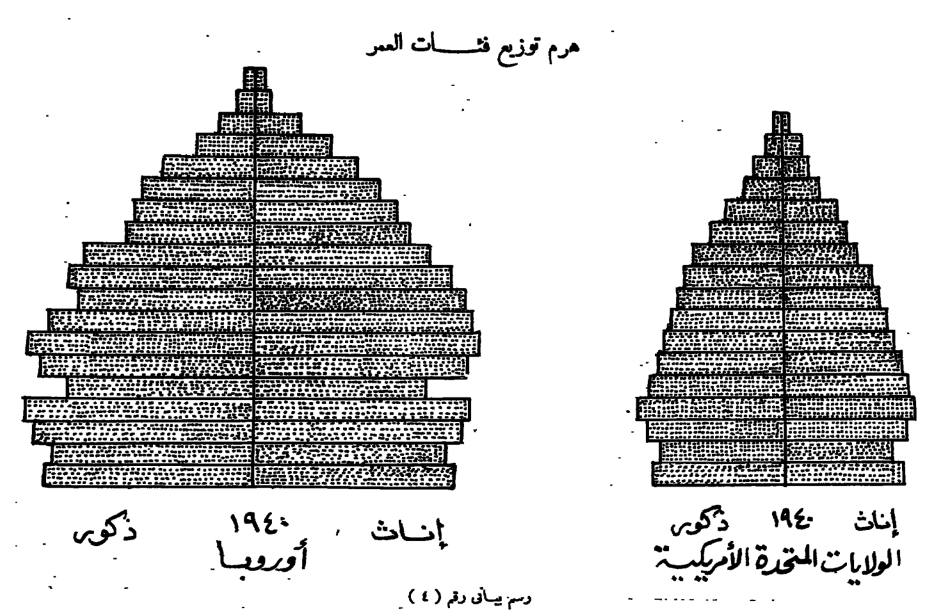
وبما أن عدد المواليد فى عام ١٩٤٧ أكبر منه فى عام ١٩٢٧ فإن قاعدة هرم ١٩٤٧ أصبحت أكبر اتساعا من قاعدة هرم ١٩٢٧ . ومن الملاحظ أيضا أن انخفاض الوفيات فى الأعوام القليلة السابقة لعام ١٩٤٧ قد جعل الدرجات التى تعلو الدرجة الأولى مباشرة درجات متسعة . ويدل هرم سكان سنة ١٩٤٧ أيضا على أن ازدياد السكان فى الأعوام العشرين القادمة سوف يزيد كثيرا عما هو عليه الآن لأن عدد فئات السن المبكرة تزيد كثيرا عنها فى عام ١٩٢٧ ، وسوف يصل منها إلى سن الخصوبة والإنتاج نسبة أكبر مما وصل الآن إلى هذه السن ، وذلك نتيجة انخفاض نسب الوفيات فى كل فئة من فئات العمر . ويدل هرم السكان أيضا على أن طبقة الشيوخ والمعمرين ما زالت قليلة وأن نسبة المنتجين لمجموع السكان أقل منها فى البلاد الأخرى . وازن بين هرمى سكان مصر ، وهرم سكان كل من الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا فى بداية الحرب العالميـــة الثانية عام ١٩٤٠ أى الرسم البيانى رقم (٤) .

ويبين هذا الرسم البيانى رقم (٤) أن عدد المواليد (قاعدة الهرم) أقل من بعض فئات العمر التى تلى ذلك (أى الدرجات التى تلى قاعدة الهرم) ومعنى ذلك أن نسبة المواليد إلى السكان هنا أقل منها فى مصر . ويبين هذا الرسم البيانى أيضا أن الجزء الأكبر من السكان يقع فى سن فئات الإنتاج ، وأن نسبة كبيرة تعيش إلى فئات السن الكبيرة ، فليست قمة الهرم مدببة فى هذين الهرمين كما هى الحال فى هرمى سكان مصر .

٤ — توزيع السكان حسب النشاط الاقتصادى :

يستنتج من تعداد عام ١٩٤٧ أن أكثر المنتجين يعملون فى الزراعة وتربية الحيوان والطيور وأن عدد العاملين فى الصناعة ما زال ضئيلا كما يتضح من الجدول الآتى رقم (١٣) .

هرم توزيع فئات العمر



رسم بياني رقم (٤)

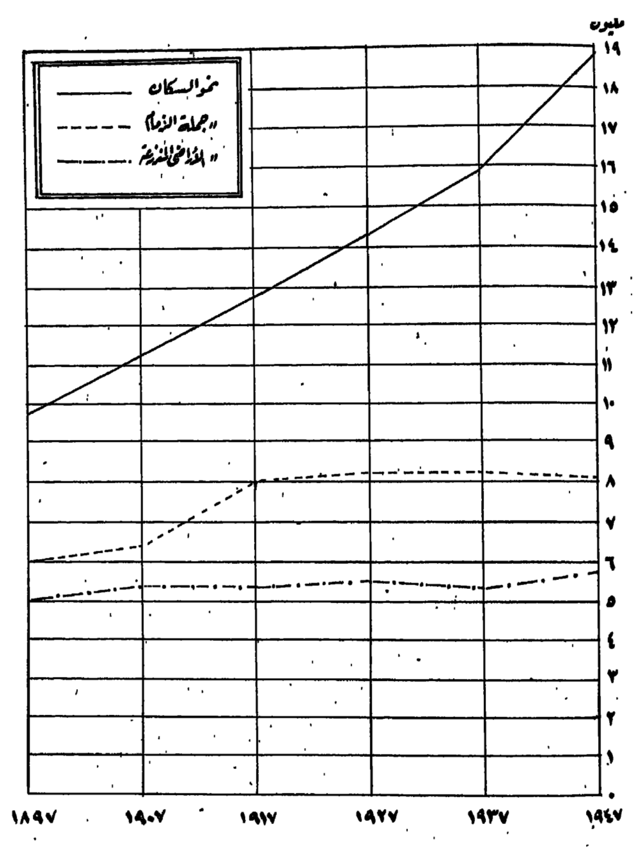
جـــدل رقم (١٣)*

التوزيع المهنى للسكان الذين فى سن الإنتاج

الصنـــاعات	١٩٣٧	١٩٤٧
الزراعة وتربية الطيور والحيوان	٤٣٠٨٢٠١	٧٥٥٤٦١٤
استثمار المناجم والمحاجر والملاحات	١٠٨٢٨	١٢٩٦٥
الصناعات التحويلية	٤٧٨١٩٩	٧٠٨٧٧٦
البناء والتشييد	١٢٠٧٠٦	١١٣٣٦١
النقل والمراسلات	١٣٨٩١١	٢٠٣٣٣٥
التجارة	٤٦٠٠٧٥	٦٢٠٢٨٨
الخدمات الشخصية	٢٤٦٠٩٩	٢٨٥٥٣٩٤
الأعمال غير المنتجة والصناعة غير الواضحة	١٣٢٧٢٠٣	يشمل هذا العدد النساء اللاتي يقمن بالواجبات المنزلية فى منازل غير الزراع

هذا هو التوزيع المهنى لفئات السن التى فى مرحلة الإنتاج ، ويتبين منها أن زراعة الأرض مازالت حتى اليوم المورد الطبيعى الأساسى للاقتصاد المصرى. وأهم مشكلة تواجهها مصر اليوم هى أن زيادة هذا المورد فى السنوات الخمسين الماضية لم تتناسب مع الزيادة فى عدد السكان . وإذا اطرد هذا الاتجاه فإنه يخشى أن يتعذر رفع مستوى المعيشة بل قد ينخفض عما هو عليه الآن . ويبين الرسم البيـانى رقم (٥) نمو كل من مساحة الأراضى المنزرعة فعلا وجملة الزمام والسكان فى خمسين سنة ، وفى كل تعداد من تعداداتها . وتستطيع أن تستخلص من هذا الرسم أن الزيادة فى السكان أسرع بكثير منها فى كل من مساحة الأراضى المنزرعة وجملة الزمام .

* التعداد العام للسكان لسنة ١٩٤٧ ، الجزء الثانى،جداول عامة . مصلحة الإحصاء والتعداد . صفحة ٣ .



نمو كل من الأراضي المنزرعة وجملة الزمام والسكان

في جمهورية مصر

وليس من شك فى أن إعادة توزيع الأرض ، والجهود الجبارة التى تبذل الآن لإصلاح الأراضى ، وإنشاء مديرية التحرير ، وتنفيذ مشروع السد العالى ، سوف تخفف من حدة المشكلة الاقتصادية . ولكنا نتساءل ، هل تؤدى هذه الجهود إلى زيادة الإنتاج بنسبة أكبر من نسبة زيادة السكان فتستطيع مصر أن تقضى على أعدائها الثلاثة وهى الجهل والمرض والفقر ؟ أم أن هناك حاجة إلى التفكير فى وسائل أخرى كذلك نواجه بها هذه الزيادة السريعة المطردة فى السكان لنتمكن من رفع المستوى العام للمعيشة ؟

السياسة السكانية :

أخذت مسألة السكان تنال عناية كبيرة فى الدول المتقدمة ، بعد أن اتضحت علاقتها بالمشكلات الاقتصادية بوجه عام وبمشكلة مستوى المعيشة بوجه خاص . وقد كونت هذه الدول هيئات علمية فنيه لدراسة الظاهرة السكانية من جميع نواحيها ووضع سياسة سكانية على ضوء هذه الدراسة تتناسب مع ظروف الدولة وتحقق مثلها الإجتماعية . وعلى هذا الأساس أصبحت هناك سياسات سكانية مختلفة بعضها يرمى إلى تحسين نوع السكان ، وبعضها يرمى إلى تخفيض عددهم ، وبعضها يرمى إلى تشجيع زيادتهم .

وقد فطنت مصر أخيراً إلى أهمية المسألة السكانية فيها فكونت فى عام ١٩٥٣ لجنة لدراسة « مسألة السكان فى مصر » ، وعندما تكشف هذه اللجنة عن الاتجاهات السكانية والعوامل التى تؤثر فيها ، ومدى تأثيرها فى مستوى المعيشة ، فإن مصر ستضع سياسة سكانية تساعد على توفير حياة إنسانية كريمة لكل فرد من أفراد المجتمع المصرى .

الفصل الرابع

تطـــور المجتمعات

يتـكون المجتمع الحديث من هيئات اجتماعية يختلف عدد أفرادها ، ويكون لـكل منها أغراض خاصة ووسائل معينة لتحقيق هذه الأغراض . والأسرة هي أهم هذه الهيئات الاجتماعية لأنها توجد في كل مجتمع ، ولأنها الهيئة الاجتماعية الأولى للطفل وأكثر الهيئات الاجتماعية أثراً في تـكوين شخصيته وتحديد اتجاهاته . .

وتتكون المنطقة المحلية[1] من الأسر التي تعيش متجاورة . وتكون لـكل منطقة محلية طابعها الخاص ومستواها في المعيشة ، كما تـكون فيها علاقات اجتماعية ربط بين أفرادها وتجعل منهم هيئة اجتماعية لها أهميتها في المجتمع الحديث .

وهناك هيئات اجتماعية أخرى لكل منها أهداف خاصة ، فالمدرسة هيئة تهدف إلى التربية والتعليم ، والنادي الرياضي هيئة تنشد تقويم الأجسام وتهذيب الأخلاق ، وأعضاء المهنة الواحدة يؤلفون هيئة اجتماعية إذا انتظموا تحت لواء نقابة أو جمعية تعمل على تحقيق أغراضهم وتنظم لهم نشاطا مشتركا .

ولهذه الهيئات الاجتماعية المختلفة ، أهمية عظيمة في تحديد نوع العلاقات الاجتماعية التي تسود أفراد المجتمع ، إذ يتوقف عليها ما نشهده في المجتمعات من نزعة إلى الجد أو إلى الخمول ، وما نلمسه من تفاؤل أو تشاؤم ، وتسامح أو تعصب .

---

(١) نقصد بالمنطقة المحلية هنا ما يسمى باسم « الحي » .

الأسـرة :

كانت الأسرة أول مجتمع عرفه الإنسان البدائى ، وكان يجد فيها كل حاجاته ، ويشبع فيها جميع رغباته الاقتصادية والاجتماعية . وقد تحددت فيها العلاقات بين الأب والأم وباقى أفرادها ، كما رسمت فيها حقوق كل منهم وواجباته على نحو ييسر أشباع الحاجات . وكانت كل أسرة تعيش مستقلة عن غيرها ، وكانت رابطة الدم هى العامل الذى يصون وحدتها .

وقد تطور نظام الأسرة على مر العصور من حيث الحقوق والواجبات ، ومن حيث العلاقة التى تربط الزوج بزوجته . ففى عهد الصيد كانت السلطة العليا للأسرة فى يد الأم وكان الأطفال ينسبون إلى أمهاتهم ، وكان الزوج ينتقل إلى منزل زوجته . وعندما بدأ الإنسان فى زراعة الأرض تغير نظام الأسرة ، فأصبحت للأب الكلمة العليا فى تدبير شئون أسرته ، وتغير نظام النسب ، وأصبح الأطفال ينسبون إلى الأب. وظلت الأسرة ، على الرغم من تغير نظامها الداخلى ، تعيش منفصلة عن غيرها إلى أن طرأت عليها عوامل جديدة جمعت بين عدد من الأسر وجعلت منهم مجتمعاً جديداً متماسكا أوسع دائرة ، يرتبط أعضاؤه بروابط خاصة ، ويسعون إلى أهداف مشتركة كالدفاع عن حياتهم والحصول على حاجات المعيشة الأساسية .

أما العوامل التى ربطت بين عدد من الأسر لتكون مجتمعاً جديداً أوسع دائرة فأهمها رابطة النسب ، والمصالح المشتركة والمنافع المتبادلة ، والسكنى فى منطقة واحدة . ويرأس هذا المجتمع الجديد أحد رؤساء الأسر ، ويكون مع باقى هؤلاء الرؤساء مجلسا للتشاور فى شئون الجماعة .

العشـــــيرة :

حين تعددت مثل هذه المجتمعات على مرور الأيام وتعارضت مصالحها ، رأت مجموعات منها أن تتحد وتتكون مجتمعات أكبر اتساعا أيضا ، كى يتعاون كل منها على تحقيق المصالح الاقتصادية والمنافع المشتركة . فتكون ما سمى باسم العشيرة .

وقد ساعد على تكوين العشيرة بهذا الشكل وجود صلة النسب ، والإقامة فى منطقة واحدة سنوات طويلة .

القبيـــــلة :

وقيام عدة عشائر فى منطقة واحدة أدى إلى تعارض وتوافق بين مصالحها ، فاتحدت العشائر ذات المصالح المشتركة وكونت كل مجموعة منها مجتمعا من نوع جديد يعرف باسم « القبيلة » . فالقبيلة هى هيئة اجتماعية متماسكة ، تشترك فى عادات وتقاليد ، وألوان من العرف . ويشرف على تنظيم علاقات أفرادها مجلس يتألف من رؤساء العشائر ويرأسه واحد منهم .

وما زلنا نجد نظام القبائل قائما فى بعض جهات العالم حتى اليوم . ففى استراليا قبائل عديدة غير أنها مبعثرة فى أنحاء شتى ، وعلاقاتها بعضها ببعض ضعيفة . وفى بعض جهات أفريقيا قبائل كبيرة العدد ، ويوجد بين أفراد كل منها شعور عميق بالإخلاص للقبيلة .

وتختلف القبيلة عن المجتمعات السابقة لها بأن ما يربط بين أفرادها ، ويؤدى إلى تماسكها هو روابط معنوية دعت إليها مصلحة المجموعة ؛ أما الأسرة والعشيرة ، فرابطة الدم كانت من أقوى عوامل قيام كل منهما .

وقد تنضم بعض القبائل إلى بعض لأسباب اقتصادية أو دفاعية أو عدوانية .

القرية والمدينة :

وتنشأ القرية من تجمع الناس فى مكان معين ، نتيجة وجود مصالح مشتركة تساعد على تحقيقها ظروف هذا المكان . وليس من الضرورى أن تكون هناك صلة قرابة بين جميع أهل القرية . أما المدينة فقد تكون فى أول أمرها قرية أو ما يشبه القرية الكبيرة ثم تنمو حتى تصبح بلدا أو مدينة صغيرة ، وقد تصبح مدينة كبيرة تتنوع فيها وجوه نشاط الناس وعلاقاتهم ، وينقسم فيها العمل كثيرا . وقد تبنى المدينة لأغراض اقتصادية أو دفاعية أو سياسية أو نتيجة ظروف طبيعية خاصة ؛ وهنا أيضا لا تكون صلة القرابة هى الدافع على إيجادها .

المجتمع الإقطاعى :

والقبيلة بدقة نظامها ، وتوزيع السلطة فيها ، وتحديد حقوق أفرادها ومسئولياتهم قد مهدت لقيام مجتمع جديد يعرف باسم « المجتمع الإقطاعى » وهو المرحلة التى مر بها الإنسان من القبيلة إلى الدولة .

ومن خواص المجتمع الإقطاعى أنه مجتمع ينقسم إلى طبقات أفقية يعلو بعضها بعضاً ، فتكون فى القمة طبقة عليا ، وتليها طبقة وسطى وتلى هذه طبقة دنيا . ولكل طبقة من هذه الطبقات حقوق وواجبات خاصة بها ولا يشترك فيها غيرها . والطبقة العليا هى طبقة الأسياد أو الأشراف . وهى صاحبة السيادة المطلقة فى تنظيم المجتمع وتدبير شئونه ، وتدعى حق التحكم فى نوع التفكير الذى يقوم به أفراد الطبقتين الأخريين ، بل حتى التحكم فى إحساساتهم وسلوكهم الشخصى أيضاً .

والطبقة الوسطى هى طبقة أنصاف الأحرار ولهم حقوق خاصة ، وعليهم واجبات معينة ، وأفرادها أكثر حظاً من الطبقة التى تليهم .

والطبقة الدنيا هى الطبقة التى يسمونها طبقة العبيد ، وهم فى نظر النظام الإقطاعى أشبه بآلات مرتبطة بالأرض التى تزرع ، وليس لأفرادها حق التصرف فى أنفسهم، ولا فى شىء لهم .

و ينشأ المجتمع الإقطاعى بسبب :

١ — توزيع الثروة توزيعا فيه تفاوت كبير . فتظهر فى المجتمع طبقة يملك أفرادها ثروات واسعة ، تكسبهم سلطة واسعة ، وتمكن لهم استغلال الفقراء وتسخيرهم فيما يعود عليهم بالكسب دون أية رعاية لمصلحة هؤلاء الفقراء .

٢ — الغزو أو حق الفتح . فالشعب المنتصر يجعل من نفسه طبقة حاكمة لها امتيازات وحقوق ، و يرتب على الشعب المهزوم واجبات ثقيلة ، و يفرض عليه ضرائب باهظة .

ومن أهم مميزات العهد الإقطاعى أن الأفراد كانوا يعيشون من أجل الحاكم ، وكان إخلاصهم للإقطاعيين وولاؤهم للحكام يفوق إخلاصهم لمصلحتهم أو لأنفسهم .

المجتمع القومى :

تطور المجتمع الإقطاعى كغيره من المجتمعات التى تقدمته ، فطغت عليه عوامل لم تكن فى حسبان طبقة الأسياد ، وقضت على سلطانهم ، وأثارت عاطفة شعبية جعلت أفراد المجتمع كتلة متماسكة ، يخلصون لرمز مشترك بينهم يمثل آمالهم ، وكونوا

بذلك شعباً واحداً تجمعه قومية واحدة . وكان من أهم أسباب تقلص « الإقطاع » وظهور « القومية » :

(أولا) التوسع فى التجارة وما أدت إليه من حاجة ملحة إلى لغة مشتركة فى المجتمع .

(ثانياً) امتزاج عناصر المجتمع بعضهم فى بعض بالتدريج .

(ثالثاً) تفوق أحد الإقطاعيين على زملائه وقضاؤه عليهم .

(رابعاً) تقرير حقوق وحريات للفرد عُدّت حداً أدنى لا يمكن النزول عنه .

(خامساً) ظهور طبقة وسطى من التجار والصناع . وكان نجاحهم فى ميادين التجارة والصناعة وحصولهم على ثروات كبيرة عاملا مهما أكسبهم قوة وجعلهم يطالبون بحق المساواة .

قضت هذه العوامل على المجتمع الإقطاعى ، ومهدت السبيل لقيام مجتمع قومى على رأسه حاكم واحد أطلق عليه اسم ملك . ولكن الملك كان يستبد بسلطانه ، وجعل لنفسه حقوقاً مقدسة ، فظهرت الأحزاب التى نشطت فى الخفاء لمقاومة الملك ، والحد من سلطته المطلقة .

وظل هذا الصراع طويلا حتى اعترف بسيادة الأمة وسلطانها ، إلى حد كبير ، فى كثير من المجتمعات الملكية الدستورية . ثم استكملت الأمة حقوقها ، واستردت كرامتها كاملة فى مجتمع جديد يعرف بالمجتمع الجمهورى .

هذه صورة لتطور المجتمع الإنسانى ، ويتضح منها :

١ — أن المجتمع الإنسانى قد استمر فى تطوره .

٢ — أن هذا التطور كان دائماً من المجتمع المبسط الصغير إلى المجتمع المعقد الكبير .

٣ — أن ظروف المجتمع نفسه قد اقتضت هذا النوع من التطور .

ومن الواضح أن عوامل التطور ما زالت تعمل فى مختلف المجتمعات .

ونرى اليوم عدداً غير قليل من قادة الفكر فى الأمم المتقدمة يبدون اهتماماً كبيراً بتنظيم العلاقات بين مختلف الأمم ؛ ليصبح العالم كله مجتمعاً إنسانياً واحداً ، ويصبح الفرد عضوا فى هذا المجتمع الإنسانى العالمى ، يشعر بحاجاته فيه ويسهم فى تحقيق هذه الحاجات . وليس معنى هذا أن يتخلى الفرد عن عاطفته القومية فالقومية والعالمية ظاهرتان متكاملتان فى مجتمعنا الحديث .

المجتمع العالمى :

منذ منتصف القرن التاسع عشر ، أخذ المفكرون ينادون بوجوب تنظيم تعاون عالمى يحقق الرفاهة والسلام بين جميع الشعوب ، ويحول دون إشعال نار الحرب ، وبخاصة بعد أن أصبح خطرها لا يقتصر على المتحاربين فى الميدان بل يصل إلى الطفل فى مهده والشيخ فى مقعده والأم فى منزلها ، نتيجة التقدم فى صناعة الأسلحة المدمرة . وقد عقدت من أجل ذلك مؤتمرات دولية ، ووقعت إتفاقات كان أكثرها يدور حول تنظيم العلاقات أثناء الحرب والسلم .

ومع أن المجتمع العالمى ما زال فكرة لم تتحقق بعد ، فإننا نسير بخطوات سريعة نحوه . فقد أدركت أكثر الأمم أنها لا تستطيع أن تعيش منعزله عن بقية المجتمع الإنسانى بعد أن تعددت أسباب الاتصال وتنوعت وسائل المواصلات ، وارتبطت أجزاء العالم ارتباطاً وثيقاً بعضها ببعض ، وأصبح لكل حادث فى أى جزء من العالم صدى بعيد الأثر فى الأجزاء الأخرى . فإذا انتشر وباء فى قطر من الأقطار هدد

الأقطار الأخرى إذا لم تتعاون جميعها لمنع عدواه . و يستدعى التوسع التجارى ومرور السفن فى أنهار العالم و بحاره أن يكون هناك تعاون فى استقبال هذه السفن وتزويدها بما تحتاج إليه من مؤن ووقود ، أن تكون هناك قوانين وأحكام تنظم هذا التعاون . وقد أصبح واضحاً فى عصرنا الحديث أن من المتعذر أن تعيش أمة فى بحبوحة إذا كانت الأمم الأخرى تعانى الفاقة والحرمان .

أما الخطوات التى تمت إلى الآن فى سبيل تحقيق المجتمع العالمى فمن أهمها :

١ — صياغة القانون الدولى واعتراف أكثر الدول به كأساس لتنظيم العلاقات بينها .

٢ — إنشاء محكمة العدل الدولية فى لاهاى التى نظرت فى عدة قضايا دولية وأصدرت فيها أحكاماً رضخت لها الدول المتقاضية ووفرت على العالم أهوال حروب لو لجأت هذه الدول إلى السيف لحسم نزاعها .

٣ — وكانت عصبة الأمم محاولة لتنظيم العالم بعد الحرب العالمية الأولى ، وقد نجحت فى حل بعض المشكلات وأخفقت فى بعضها الآخر .

٤ — ونشهد اليوم أعظم تجربة فى التاريخ لتنظيم العالم وحل مشكلاته ليتحقق المجتمع العالمى الذى يدرك فيه كل فرد حاجات غيره من أفراد الدول الأخرى إدراكا يؤثر فى سلوكه نحوهم . هذه التجربة هى « هيئة الأمم المتحدة » . ولا يتسع المجال هنا للكلام عن نشاطها ونكتفى بالإشارة إلى بعض نواحى هذا النشاط .

تتكون هيئة الأمم المتحدة من عدة مجالس ومنظمات لكل منها اختصاصها ، ولا يقتصر نشاط هذه المجالس والمنظمات على الناحية السياسية بل نجد :

(ا) مجلس الأمن الذى يناقش المسائل السياسية .

(ب) المجلس الاقتصادى والاجتماعى ، وله نشاط واسع فى بحث المشكلات الاقتصادية والاجتماعية فى العالم ، ومحاولة تنمية الموارد .

(ح) مجلس الوصاية ، وله نشاط فى معاونة الدول المتخلفة على استكمال تنظيم شئونها لتتولى إدارة بلادها .

(د) منظمة اليونسكو ، ويتجه نشاطها إلى رفع مستوى التربية ونشر التعليم فى العالم . وتشرف هذه المنظمة على مؤسسة التربية الأساسية فى «سرس الليان» بمصر ، وهى مؤسسة يعد فيها فريق من أبناء الدول العربية ويدربون على الوسائل التربوية والتعليمية التى تساعد على رفع مستوى المعيشة .

(هـ) منظمة العمل الدولية ، وهى تساعد فى دراسة مشكلات العمل والعمال ، وفى عمل برامج تهدف إلى رفع مستوى العمال .

(و) منظمة الصحة العالمية ، وهدفها رفع المستوى الصحى ، ولها برنامج صحى خاص فى قليوب البلد (بمصر) .

ولعل أهم ما يمتاز به النشاط الثقافى والاجتماعى لمنظمة الأمم المتحدة أنه يقوم على أساس من الدرس والبحث والتجربة .

وهذا النشاط العالمى الذى ينبعث من هيئة الأمم المتحدة سوف يقرب بين شعوب العالم ، ويمهد لتفاهم مشترك فى الشئون العالمية ، فيسود التعاون ويؤدى ذلك إلى تحقيق المجتمع العالمى .

الفصل الخامس

حياة المدن وحياة الريف

ينقسم المجتمع الحديث قسمين رئيسين هما : المجتمع الحضرى (فى المدينة) والمجتمع الريفى (فى القرية) . ويكاد لا يخلو مجتمع من وجود هذين النوعين ، وإن كان سكان المدن يزيدون على سكان الريف فى بعض الأقطار ، ويقلون عنهم فى أقطار أخرى . والأقطار التى يزيد السكان فى مدنها عن السكان فى ريفها هى الأقطار التى دخلت فى دور صناعى منذ زمن بعيد ، فاتسعت مصانعها وازدهرت صناعتها ، وتعددت أنواعها ، مثل : ألمانيا ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة الأمريكية، والسويد . والأقطار التى يسكن أكثر سكانها فى الريف هى التى لم تدخل فيها الصناعات أو التى أخذت فى الاهتمام بالصناعة من عهد غير بعيد مثل الهند ومصر .

ويختلف المجتمع الحضرى عن المجتمع الريفى فى تكوينه ، وحاجاته وعلاقاته الاجتماعية . وقبل أن نوازن بين حياة المدن وحياة الريف ، نشير إلى أن حياة المدن تختلف باختلاف الحرف والمهن السائدة فيها ، فقد تكون المدينة تجارية أو صناعية أو تكون مصيفاً أو مشتى ، وقد تكون دينية أو سكنية . وهناك أساليب عامة لحياة المدن تختلف عن أساليب الحياة فى الريف، ولكل منها أثر واضح فى الاتجاه الاجتماعى للفرد وفى تكوين شخصيته .

أهم ما تمتاز به المدينة عن القرية :

١ — سكان المدينة يزيدون زيادة سريعة بفضل الهجرة المستمرة من الريف إليها . فقد ازداد سكان القاهرة بين عام ١٩٣٧ و ١٩٤٧ بنسبة ٦٠٪ مع أن الزيادة

العامة فى السكان فى مصر كلها كانت فى هذه الفترة ١٩،٨ ٪ وسبب هـــذه الزيادة أن عدد المهاجرين إلى القاهرة يزيد كثيراً على عدد المهاجرين منها .

ويبين الجدول التالى عدد المهاجرين إلى القاهرة (أى الداخلين إليها) وإلى مدن مصرية أخرى . كما يبين عدد المهاجرين منها (أى الخارجين منها) حسب تعداد عام ١٩٤٧ :

اسم المدينة	عدد المهاجرين إليها	عدد المهاجرين منها	الفرق بين العددين
القاهرة	٧٦٥١٦٩	٩٤٩٣٢	٦٧٠٢٣٧
الإسكندرية	٢٨٢٣٣٢	٦٩٣٢٧	٢١٢٩٠٥
القنال	١٠١٢٠٣	٢٢٥٠٧	٧٨٦٩٦
السويس	٦٠٤٣٣	١٣٠٧٨	٤٧٣٥٥

٢ — يعيش سكان المدينة فى بيئة من صنع الإنسان فتكاد تنقطع صلتهم بالبيئة الطبيعية .

٣ — تتوافر فى المدينة فرص التعليم ، فتكاد لا تخلو مدينة من مدارس المرحلة الأولى والمدارس الثانوية بقسميها ، وهذه الأخيرة لا توجد فى الريف إلا نادراً . وتوجد المصارف (البنوك) والمحاكم ومراكز الأعمال فى المدينة .

٤ — تتيح المدينة فرصا للتقدم والرقى للطامحين ، ويحصل العامل فيها على أجور أعلى مما يحصل عليها العامل فى الريف .

٥ — توسع الأعمال فى المدينة يفتح مجال العمل أمام شباب الريف فيهرع إليها . وإنا لنجد أن نسبة الشباب المنتج فى القاهرة (فئات السن من ١٥ — ٤٩ سنة)

تبلغ نحو ٥٢ ٪ من مجموع سكانها . وتبلغ هـذه النسبة فى الجمهورية كلها نحو ٤٧ ٪ .

٦ — توجد فى المدينة وسائل اللهو والتسلية ؛ فيحب الشباب الإقامة فيها .

أساليب الحياة الاجتماعية فى الريف والمدينة :

تختلف أساليب الحياة الاجتماعية فى الريف عنها فى المدن بسبب طبيعة تكوين كل منها ونوع العمل الذى يقوم به السكان . ويبدو الاختلاف واضحاً فى الظاهرات الاجتماعية التالية :

١ — الأسرة الريفية أشد تماسكا من أسرة المدينة . فطبيعة العمل فى الريف تدعو إلى تعاون أعضاء الأسرة فى نشاط اقتصادى مشترك ، وتجعل تبادل الخدمات أمراً ضرورياً . لهذا تزداد روابط الأسرة قوة فى الريف ، ويبدو اتجاه الأسرة ومثلها الاجتماعية واضحاً فى كل فرد من أفرادها ، وتتحكم العادات والتقاليد فى سلوك الأفراد .

٢ — النزعة الدينية عند الريفى أشد منها عند الحضرى ، فالريفى أكثر محافظة على أداء فروض العبادة ، وأشد حرصا على التقرب إلى خالقه . ويساعد على ذلك اتصاله المباشر بالطبيعة ، واعتماده فى الزراعة والحصاد وتربية الحيوان على عوامل ليس له سلطان عليها .

٣ — يقوم الريفى بأعمال كثيرة منوعة : من حرث وزرع وحصاد وتربية الحيوان ، وما إليها . أما الحضرى فإنه يتخصص فى عمل معين يقوم به . ويعتمد الريفى فى أعماله على زوجته وأولاده أكثر مما يعتمد أهل المدن .

٤ — تبدو البساطة والاقتصاد فى معيشة أهل الريف .

٥ — يرى الريفى أن كل ما يرفع من شأن الأسرة يزيد من شأنه . ويرى كثير من الريفيين أن مكانة الأسرة تحدد مكانة الفرد ، مهما كانت شخصيته أو تفوقه ونجاحه أو فشله ، وأن اتجاهات الفرد السياسية أو الاجتماعية يجب أن لا تنحرف عن اتجاهات الأسرة .

٦ — التحرك الاجتماعى (أى الارتفاع أو الانخفاض فى درجات السلم الاجتماعية) سريع فى المدينة ، أما فى الريف فهو بطىء . فمكانة الفرد فى المدينة تتوقف على قدرته الشخصية ، ومدى نجاحه فى الأعمال .

٧ — تنوع ظروف الحياة فى المدينة وكثرة الدوافع فيها ووجود حرية فى اختيار العمل ، تصقل الأشخاص وتنمى فى الفرد قوة الابتكار وتجعله أكثر تسامحا من ساكن الريف .

٨ — يسرت حياة المدن فرص التعليم والعمل للمرأة فارتفعت مكانتها وقل الاختلاف فى الحقوق والواجبات بينها و بين الرجل .

ونحن لا نفاضل بين الريف والمدينة فلكل منهما أثره فى حياة المجتمع وتقدمه ، وكل منهما يكمل الآخر . وإن ما نشاهده اليوم من جهود تبذل فى توفير الحياة الصحية لأهل الريف ، بإنشاء المستشفيات ، وإقامة المراكز الاجتماعية القروية ، وتحديد علاقة المستأجر بصاحب الأرض على أساس من العدل الاجتماعى ، وتوزيع الأراضى على نحو يقلل من الفوارق التى باعدت بين أفراد الشعب الواحد ، كل ذلك يطمئننا على رفع مستوى معيشة أهل الريف ، فهم بمثابة السلسلة الفقرية للأمة ، وإذا صحت أجسادهم واتسعت ثقافتهم سعدت الأمة كلها .

الباب الثالث

التراث الاجتماعى

التراث الاجتماعى

عرفت مما تقدم أثر الجماعة فى نمو الفرد نمواً اجتماعياً ، وكيف أنه يكتسب عن طريق المعيشة فى الجماعات المختلفة والتعامل مع أفرادها صفة الاجتماعية الناجمة عن تعديل دوافعه الفطرية وتهذيبها لتلائم الحياة فى المجتمع البشرى . ولا يقتصر أثر الجماعة فى الفرد على ذلك فحسب ، بل ان الجماعة تلعب أيضا دوراً هاما كوسيط موصل ناقل من السلف إلى الخلف . فما الذى توصله الجماعة إلى الفرد ، وما الذى تنقله من السلف إلى الخلف ؟

تستطيع أن تجيب عن هذا السؤال إذا لاحظت نفسك وتدبرت سلوكك . فإذا فعلت ذلك ستجد أنك تتخاطب بلغة ، وتتبع ألوانا من العادات والتقاليد ، والعرف ، والقانون ، وتخضع لأنظمة اجتماعية معينة : كالزواج ، والأسرة ، والنظام الاقتصادى ، والنظام السياسى . كما تجد أنك أيضاً تؤمن بدين وتعتقد فى معتقدات وتهدف إلى مثل عليا ، وتتذوق ألواناً خاصة من الجمال ، وتأكل أطعمة خاصة تطهى بطريقة معينة ، وتلبس ملابس خاصة تصنع بشكل متعارف عليه ، وتسكن مسكنا يبنى بطريقة خاصة . وأنت عندما تأكل أو تلبس أو تسكن ، أو تتعامل مع غيرك من الأفراد ، تفعل ذلك بطرق خاصة أيضاً ؛ كما أنك إلى جانب ذلك تستعمل وسائل معينة للاتصال بالآخرين ، وتستخدم أدوات ، وتتعلم طرق استعمالها .

كل هذه الأشياء والنظم وما يتصل بها من أفكار يستوعبها الفرد عن طريق معيشته الاجتماعية مع غيره من أفراد الجماعات التى ينشأ فيها ويربى فى مراحل نموه المختلفة ؛ ولذلك يطلق عليها اصطلاح « التراث الاجتماعى » ؛ لأنها بمثابة ميراث

أو ذخيرة اجتماعية توصلها الجماعة من السلف إلى الخلف على مر السنين عن طريق عملية التعليم .

ولما كان التراث الاجتماعى لأى مجتمع يدل على مبلغ تقدمه ورقيه ، أو تأخره وانحطاطه ، فقد أصبح يعرف بين الاجتماعيين باصطلاحى « الثقافة » و « الحضارة ». فثقافة المجتمع وحضارته هما تراثه الاجتماعى الذى يتعلمه الخلف عن السلف بالوسائل التى فصلناها فيما سبق[1] .

---

(١) إن ما سميناه بالثقافة والحضارة يطلق عليه الغربيون إصطلاحا وحداً هو culture ، ولكنا قد رأينا أن نستخدم كلمة « الثقافة » لتدل على العناصر غير المادية فى التراث الاجتماعى ، أى لتدل على الأفكار والآراء والمعنويات الأخرى كالعادات والعرف والتقاليد والمعتقدات والمثل العليا والقيم وما إلى ذلك ، لأن كلمة الثقافة تؤدى هذا المعنى بشكل واضح .

ولقد رأينا أيضا أن نستخدم كلمة « الحضارة » لتدل على العناصر المادية فى التراث الاجتماعى كالمبانى والأثاث والآلات والأدوات ووسائل المواصلات وما إلى ذلك ، لأن كلمة الحضارة تؤدى هذا المعنى بشكل أوضح أيضاً .

ونحن وإن كنا قد قسمنا كلمة culture إلى ثقافة وحضارة إلا أننا نؤكد أنهما مرتبطتان ارتباطاً وثيقا بحيث لا يمكن الفصل بينهما كما سيتبين فيما بعد .

الفصل الأول

العناصر التى تكون التراث الاجتماعى

عرفت إذن أن التراث الاجتماعى هو ما يكتسبه الفرد من الجماعات المختلفة التى ينشأ فيها و يتعامل مع أفرادها . وأهم هذه الجماعات الأسرة ، والمدرسة ، وعصبة اللعب ، والجمعيات المختلفة التى يشترك فيها ، والمنطقة التى يسكنها ، ومحل العمل الذى يعمل فيه ليكسب قوته . و ينقسم التراث الاجتماعى قسمين أحدهما غير مادى و يشمل اللغة ، والعادات ، والعرف ، والتقاليد ، والدين ، والمعتقدات ، والقانون ، والنظم الاجتماعية المختلفة . والقسم الآخر مادى و يشمل كل ما يستطيع الإنسان عن إدراكه طريق الحواس .

القيم المتعلقة بالتراث الاجتماعى :

إذا تدبرت التراث الاجتماعى فإنك تجده يعتمد فى أساسه على أفكار تتركز فى عقول الأفراد . فليس هناك أى عنصر من عناصر التراث الاجتماعى المادية إلا و يربطه الناس بأفكار وقيم تجعلهم يتهافتون عليه ، و يستخدمونه أو ينفرون منه و يهملونه . فالمذياع مثلا عنصر مادى قد أصبح محوراً لقيم كثيرة ربطها الناس به . فهو دليل على اليسر المادى إلى حد يذكر ، وعلامة على الرفاهة وبخاصة فى نظر الريفيين ، كما أنه مُسَلٍّ إلى درجة كبيرة ، وبخاصة للأطفال والمسنين والنساء القابعات فى بيوتهن . وقد أصبح استعمال مكبر الصوت « الميكروفون » ضروريا فى الأفراح والمآتم ، لإسماع الغناء وأناشيد السيرة النبوية ، وترتيل القرآن بقوة

وفى نطاق واسع ؛ ولأنه يدل على القدرة المادية . ولذلك يحرص الناس على استعماله فى هذه المناسبات وأشباهها .

ومن جهة أخرى ينفر بعض القرويين من شرب مياه الآبار الارتوازية النقية التى ترفع بالمضخات فى الريف ، لأن نفراً من الجهلاء أشاعوا أنها تصيب الرجال بضعف الجسم وتلف الأعصاب ، وتسبب عقم النساء . ولقد كان كثير من المصريين ينفرون من ركوب الترام عند بدء استعماله فى القاهرة ، وكانوا يفضلون ركوب العربات التى تجرها الخيل ، لأنهم قد اعتادوا ركوبها فأصبحت آمن فى نظرهم من الترام .

ولكن الأفكار المنفرة التى يربطها الناس بعناصر التراث الاجتماعى المادية سرعان ما تزول بالتعليم والتنوير والاقتناع بفائدتها ، ومحاكاة الأفراد الذين يحبون التغيير ويعتقدون فى التجديد ولو على سبيل التجربة . وهكذا تتغير أفكار الناس بالتدريج ، ويقبلون على استعمال تلك العناصر المادية بالتدريج أيضا حتى يصبح استعمالها شائعاً بينهم بعد مرور فترة من الزمان .

ارتباط العناصر المادية بالعناصر غير المادية :

إذا تأملت فى العناصر المادية للتراث الاجتماعى فإنك تجدها مرتبطة أوثق ارتباط بعناصره غير المادية . فلا بد لتكوين الأسرة من مسكن ؛ سواء أكان هذا المسكن مستقلا بذاته أم غير مستقل ؛ كما لا بد من تأثيث هذا المسكن ببعض الأثاث والآنية والأدوات . ويحتاج النظام التعليمى إلى مدارس ومعاهد وجامعات تبنى بهندسة خاصة وتؤثث بنوع خاص من الأثاث والأدوات ، كما أن تنوير الشعب يحتاج إلى دور وآلات لعرض الأفلام وطبع الصحف والكتب وإذاعة البرامج الخاصة . ويحتاج النظام الدينى إلى مبان خاصة أيضاً للتعبد وإقامة الشعائر الدينية كالمساجد

والكنائس وما تحويه من منابر أو هياكل ، وبسط أو حصر ، وغير ذلك .
وسواء أكان النظام الاقتصادى رأسمالياً أم اشتراكياً أم مزيجا منهما ، فهو قائم على الإنتاج بأنواعه المختلفة ووسائله المتنوعة من عدد وأدوات وآلات ومصانع . كما أنه يقوم على النقود أو استبدال المنتجات بعضها ببعض . ولا بد للقضاء من دور مؤثثة يقام العدل فيها ؛ كما لا بد للسلطتين التشريعية والتنفيذية من دور مؤثثة أيضاً وما إلى ذلك .

الجانب الثقافى فى التراث الاجتماعى :

يشمل الجانب الثقافى فى التراث الاجتماعى العناصر غير المادية ، وأهمها اللغة ، والدين ، والعادات ، والعرف ، والتقاليد المختلفة . وسنفصلها فيما يلى :

(١) اللغة .

وهى أداة الاتصال التى لا تضارع ؛ إذ عن طريقها تحدث العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، و يستطيع الفرد أن ينقل رأيه وتفكيره ورغباته ومطالبه إلى غيره ممن يتعاملون معه . ولذلك كانت اللغة من دعائم الحياة فى المجتمع ، ومن عوامل تماسك أفراده بعضهم ببعض . وتستطيع أن تتبين قيمة اللغة كدعامة أساسية للحياة الاجتماعية لو أنك ذهبت إلى حفل لا تفهم لغة المدعوين إليه . فأنت بلا شك ستعتمد فى هذه الحالة على فهمك لما تراه على وجوههم من إمارات الاستحسان أو الاستهجان أو البهجة أو الحزن . ولكنك لن تستطيع أن تعتمد فقط على تعبير الوجوه وحركات الرءوس والأيدى وأصوات الضحك أو الاشمئزاز لفهم هؤلاء الأفراد والتعامل معهم .

ومما يزيد من أهمية اللغة أنها العنصر غير المادى الذى يبدأ الطفل فى تعلمه قبل أن يعرف شيئاً عن الدين والعادات والعرف والتقاليد وغير ذلك من العناصر غير

المادية . والواقع أن الطفل لا يستطيع أن يعرف التراث الاجتماعى بدقة وفى سرعة ويسر ، ما لم يتعلم لغة الجماعة التى ينشأ فيها والتى يربيه أفرادها ، ولذلك تعد اللغة أداة الثقافة والحضارة .

(ب) الدين :

وهو عنصر غير مادى من عناصر التراث الاجتماعى ، يتعلمه الفرد عن طريق الجماعة التى يعيش بينها كما ذكرنا فى الباب الأول . وللدين أهمية كبرى ، لأنه يطمئن العقل البشرى الذى لا ينقطع عن التساؤل عن أمور وقف العلم عاجزاً عن معالجتها أو تفسيرها ، كالموت وما يحدث بعده ، وأصل الكون ، وسر التفاوت بين البشر ، لا فى الرزق أو الاستطاعات فحسب ، بل فى الصحة والمرض أيضاً . والدين كذلك يضبط سلوك الأفراد ، ويحدد تعاملهم بعضهم مع بعض بترغيبهم فى ثواب الله فى الدنيا كالحفظ من المكروه وسعة الرزق أو النجاح وحسن الحظ ، ويحثهم أيضا على السلوك السليم ليستمتعوا فى الآخرة بالخلود فى الجنة . وكما يرغّب الدين الأفراد فى ثواب الله ، يخوفهم فى الوقت نفسه من عذابه بأن يعدهم فى الآخرة بالعذاب فى نار جهنم . ويربط الناس مخالفاتهم لقواعد الدين بما يصيبهم فى الدنيا من مرض أو مصائب أو فقر أو سوء حظ .

ولا تقف أهمية الدين عند هذا الحد ؛ بل تتعداه إلى تعليم الناس ما يصلح شئونهم فى دنياهم ويجعلهم متآلفين ؛ وذلك بتعويدهم العادات الحسنة وحضهم على الفضائل .

(حـ) العادات :

وهى أنواع من السلوك اليومى لأفراد الجماعة تتعلق بنظام معيشتهم من مأكل ، وملبس ، ومسكن ، وعمل ، وترويح عن النفس ، ومعاملات اجتماعية أخرى . وقد اتضح

لك فى الباب الأول أن من أهم وظائف الجماعة تعليم أفرادها الصغار أنماطاً مختلفة من الأفعال والسلوك ، فإذا ما تكرر حدوث أفعال معينة فى مناسبات معينة ، تأصلت هذه الأفعال فى نفوس الأفراد وصارت نظاماً رتيباً لا يتغير و يصعب عليهم التحرر من قيوده ؛ و بخاصة أنه يصادف قبولا عاماً من أفراد الجماعة .

ومن ميزة العادات أنها تيسر الحياة و تجعل الأفراد يؤدون الأفعال ويتصرفون فى المواقف فى سهولة وسرعة ، معتمدين فى ذلك على ما اعتادوا فعله فى مثل هذه المواقف . ولذلك كانت العادات اقتصادية فى نتائجها ؛ فهى تختصر الوقت وتقلل الجهد الذى يبذل فى التفكير فى تفاصيل كل فعل يتكرر حدوثه .

(د) العرف :

لتسهيل دراسة العرف ، يمكن وصفه بأنه عادات مقتبسة اقتباساً أفقياً فى الجيل الواحد ؛ أى تنتقل بين الأفراد من واحد إلى آخر عن طريق الاختلاط والتجاور فى زمن معين . فالعادات فى محيط الحياة الاجتماعيــة تنبعث من مركز استحداثها إلى أماكن أخرى مجاورة أو بعيدة ، تبعا للوسائل الناقلة لها . فقد تستحدث أسرة فى منطقة معينة عادة الاحتفال بعيد ميلاد طفلها ؛ فتنتقل تلك العادة من هذه الأسرة إلى أسر أخرى مجاورة أو صديقة بعيدة ، ومن هذه الأسر الأخرى إلى أسر غيرها ، وهلم جرا حتى تعم فى هذه المنطقة . ومن العادات المستحدثة فى المجتمع المصرى والآخذة فى الانتشار فى زماننا هذا عادة تعرية الرأس وعدم التمسك بلبس الطربوش ، وعادة عقد العقد والزفاف فى ليلة واحدة . وكلما ذاعت العادة وانتشرت ، تعارف الناس عليها ، أى صارت عرفا بينهم ، وأصبح لها صفة الإلزام .

(هـ) التقاليد :

لتيسير دراسة التقاليد ، يمكن تعريفها بأنها عادات مقتبسة اقتباساً رأسياً ؛ أى من الماضى إلى الحاضر ، ثم من الحاضر إلى المستقبل . فهى تنتقل من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف على مر الزمان . و بينما يصادف الاقتباس الأفقى للعادات (أى العرف) مقاومة شديدة ممن لا يسهل استهواؤهم بسرعة ، فإن اقتباس التقاليد لا تقف فى طريقه الموانع ، لما بين المقتبس والمعطى من التباين العظيم فى التأثير . فالطفل مثلا يميل إلى التقليد ، كما أنه سريع التأثر بما يشاهده من سلوك الكبار الذين يتعاملون معه ؛ ولذلك كان تأثره بوالديه عظيما . و كذلك الحال بين الساذج والمتعلم ، والقروى والمتحضر . والتقليد بهذا الشكل يزداد تمسك الإنسان به مع مرور الزمن لأن ما يفعله الإنسان مرة و يستحسنه يميل إلى فعله مرة أخرى فمرات . و إذا ما تكرر فعله ، وكان لا يزال يستحسنه و يستسهله ، فإنه يود لو أن غيره يفعله أيضاً ، ولا سيما إذا كان هذا الغير عزيزاً عنده كابنه مثلا ؛ و إذا استمر هذا الميل من جيل إلى جيل قوى التقليد كثيراً . و يمكننا أن نقول : إن التقاليد والعادات كالطريق الذى كلما طرقه الناس تمهد وسهل السير فيه ، حتى أنهم يستصعبون فى آخر الأمر العدول عنه إلى طريق آخر غير مطروق .

الجانب الحضارى فى التراث الاجتماعى :

يشمل الجانب الحضارى العناصر المادية للتراث الاجتماعى كالمبانى ، والأثاث ، والأدوات ، والملابس ، والآلات ، ووسائل المواصلات كما ذكرنا . و كل هذه الأشياء من صنع الإنسان الذى لا يفتر عن الكشف والابتكار ، فتحدث كشوفه وابتكاراته آثاراً بعيدة المدى فى الحياة الاجتماعية . فإذا اهتدى الإنسان إلى أداة من الأدوات التى تسهل عليه الحياة باختصار وقته وجهده ، واقتنع بفائدتها له استمسك بها ونبذ

الأداة القديمة . وهناك عوامل كثيرة تساعد على انتشار العناصر المادية فى المجتمع . فما أهم هذه العوامل ؟

عوامل انتشار العناصر المادية :

(أولا) يشترط للأخذ بالوسائل المادية المستحدثة اقتناع الإنسان بفائدتها اقتناعا قائما على التجربة ، وإذا ما ظهرت فائدتها وصلاحيتها أقبل الناس عليها واستعملوها . فالتاجر الذى تروج بضاعته ويكثر عملاؤه يفكر فى تركيب جهاز المسرة فى متجره لكى يستطيع التوسع فى تجارته ، وإذا ما فعل ذلك قلده كثيرون غيره من التجار ؛ لأنهم يقتنعون بفائدة استخدام المسرة فى التجارة . والزارع الذى يستعمل الآلات الحديثة فى حرث الأرض وريها وحصد الزرع ودراسه لاستخراج الحب من السنابل يجنى أرباحا كبيرة ، ولذلك يسارع زملاؤه ممن يستطيعون شراء مثل هذه الآلات إلى الاقتداء به بعد أن يتبين لهم نفعها . وهكذا يمكن تفسير استعمال الوسائل المادية الحديثة كالدراجة والسيارة والترام والقطار فى السفر والانتقال بدلا من الخيل والبغال والحمير والمركبات التى تجرها هذه الدواب ؛ لأن الوسائل الحديثة مفيدة ، فهى مريحة وسريعة تتمشى مع مطالب الحياة الاجتماعية الحديثة ، وهى مطالب تقوم أساسا على الاقتصاد فى الوقت والجهد .

(ثانيا) فى كثير من الحالات يقبل عدد كبير من الناس على نوع معين من الملابس أو الأدوات ويستعملونه كى يمتازوا به عن غيرهم ، كارتداء زى خاص أو استعمال نظارات شمسية خاصة أو أدوات معينة للزينة . والملاحظ أنه سرعان ما يتشبه بهم غيرهم . وهكذا نجد أن بعض الناس يريد الامتياز والتفوق ، بينما يعمل البعض الآخر على إزالة الفوارق . فهؤلاء يجددون ، وأولئك يقلدون .

(ثالثاً) ومما يساعد العامة على محاكاة الخاصة فى استعمال العناصر المادية الجديدة أن المصانع الحديثة أخذت تغمر الأسواق بالسلع الرخيصة فى وقت قصير ، وأن الفنيين قد أبدعوا فى إنتاج المصنوعات المتنوعة بحيث استطاعوا أن يلبوا رغبة كل فئة وكل طبقة فى المجتمع بالثمن الذى يمكنها دفعه . فالحلى «الكورو» صارت منافسة للحلى الذهب ؛ بل قد تفوقت عليها لرخصها ودقة صنعها وجمال منظرها ، والماس الصناعى حل محل الماس الحقيقى لرخصه وجودة صنعه إلى درجة أصبح التمييز بينهما غير سهل ؛ والحرير الصناعى صار منافساً قوياً للحرير الطبيعى ، وهكذا .

ومما يساعد أيضا على انتشار العناصر المادية فى المجتمع ، الدعاية المتنوعة التى تقوم بها الشركات لترويج منتجاتها فى الأسواق .

مصادر التراث الاجتماعى :

قد تكون بعض العناصر المادية فى المجتمع من ابتكار العباقرة من أفراده أو كشفهم ، وقد يكون بعضها منقولا عن مجتمعات أخرى . ومن المعروف أن بناء الأهرامات المدرجة والملساء ، واستعمال كل من الرافعة لرفع الأحجار ، والشادوف لرفع الماء ، وورق البردى للكتابة ، والصوامع لحفظ الغلال ، وكذلك صنع الفخار وطلاؤه ، واستعمال النحاس فى عمل الأوانى ، وصنع السلال والحصر ، ونسج الكتان ، وصنع الزجاج ، وبناء السفن ، وصنع اللبن (الطوب النىء) وأدوات البناء ، وعمل الحبال من ألياف النخيل والحلفاء ، ونسج شباك الصيد ، وصنع أدوات النجارة ، وصنع الحلى من الذهب والفضة ، وغير ذلك من العناصر المادية التى تزدحم بها دار الآثار المصرية فى القاهرة ، كلها من ابتكار المصريين القدماء ومن كشفهم منذ آلاف السنين .

أما فى العصر الحاضر ، فجل العناصر المادية التى نستعملها فى حياتنا اليومية مصنوع فى دول أخرى أو مقتبس منها ؛ ذلك لأننا أهملنا الصناعة زمناً طويلا واعتمدنا اعتمادا كبيرا على ما يستورد من الخارج فقلت فى مجتمعنا فرص الابتكار والكشف ، حتى لقد بلغت حد الندرة . ولكن ما أن بدأ التصنيع يقوم فى مصر تدريجيا على أسس متينة حتى بدأنا نقرأ عن كشوف واختراعات يسجلها عباقرة المصريين فى الميادين المختلفة .

اقتباس المجتمعات بعضها من بعض :

واقتباس أى مجتمع بعض عناصر التراث الاجتماعى ، وبخاصة المادية منها ، من مجتمع آخر لا يدل على أن هناك تشابها بينهما . فلكل مجتمع طابعه الخاص الذى يمتاز به أفراده عن أفراد المجتمعات الأخرى . فمثلا على الرغم من أن فئة كبيرة من المصريين يلبسون الملابس الأوروبية ، ويسكنون مساكن مبنية ومؤثثة على الطراز الأوروبى ، ويستعملون أدوات أوروبية ، فإنهم فى لغتهم وعاداتهم وعرفهم وتقاليدهم مصريون وليسوا بأوروبيين .

واتصال المجتمعات المختلفة واحتكاكها بعضها ببعض فى ظروف مختلفة منذ القدم قد جعلها تقتبس بعضها من بعض مفردات لغوية وعادات وتقاليد إلى جانب بعض العناصر المادية . ففى اللغة العربية مثلا كلمات أعجمية كثيرة ، وفى اللغات الإنجليزية والفرنسية والأسبانية مئات من الكلمات العربية . ولكن مهما تكن هذه العناصر المقتبسة فإن المجتمع يستوعبها ويهضمها ولا يظهر لها أثر يذكر .

أثر التراث الاجتماعى :

ويترتب على وجود عناصر التراث الاجتماعى المختلفة فى مجتمع من المجتمعات أن يتماسك أفراده ، لأنهم يشعرون شعوراً متشابها فى معظم الظروف والمناسبات ،

ويخضعون فى سلوكهم للغة وعادات وعرف وتقاليد ومعتقدات وأفكار متشابهة . وهذا يجعلهم يختلفون عن غيرهم من أفراد المجتمعات الأخرى .

الاعتداد بالتراث الاجتماعى :

لما كان لكل مجتمع طابعه الخاص الذى يجعله يختلف عن المجتمعات الأخرى ، أى له لغته وعاداته وعرفه وتقاليده ومعتقداته وأفكاره ووسائله المادية الخاصة به دون غيره ، أصبحت هناك ظاهرة ملحوظة هى أن أفراد كل مجتمع يعتقدون أن تراثهم الاجتماعى خير وأفضل من تراث المجتمعات الأخرى . وهكذا نجد أن كل فرد بمجتمعه معجب ومعتد . وليت الأمر يقف عند هذا الحد ؛ بل إننا نجد أفراد كثير من المجتمعات يسخرون من أفراد المجتمعات الأخرى لاختلاف تراثهم الاجتماعى عما ألفوه ونشأوا عليه ، ويعتقدون أنهم متفوقون عليهم فى الثقافة والحضارة . فالإنجليز يعتقدون أنهم متفوقون على الأمريكيين ؛ بينما يعتقد الأمريكيون أنفسهم أنهم قد فاقوا على الإنجليز بمراحل كبيرة . والألمان يعتقدون أن الفرنسيين منحلون ؛ بينما يعتقد الفرنسيون أن الألمان متأخرون . والغربيون يعتقدون أن الشرقيين متخلفون ؛ بينما يعتقد الشرقيون أن الغربيين ماديون . والواقع أنه ليس لأى فرد يد فى هذا الأمر ، فكل مولود يولد — كما ذكرنا سالفاً — خالى الذهن عما يدور حوله فى المجتمع ؛ وإنما أبواه ومن يتولون تربيته هم الذين ينقلون إليه تراثهم الاجتماعى ، أى يطبعونه بطابع مجتمعهم . فلا يصح إذن أن يسخر قوم من قوم لتباين تراثهم الاجتماعى .

الغرض من دراسة التراث الاجتماعى :

ونحن لا ندرس التراث الاجتماعى للمجتمعات المختلفة كى نعقد بينها مقارنات أو لنجعل ذلك أساسا للمفاوضة فيما بينها ؛ بل ندرسه لنعرف عناصره المختلفة التى

يتكون منها ، وكيف يوجد كل عنصر من هذه العناصر ، ولنعرف أثر التراث الاجتماعى فى أفراد المجتمع وفى تعاملهم بعضهم مع بعض ، وتسلسل هذا التراث بين الأجيال المتعاقبة ، وانتشاره بين المجتمعات المختلفة ، ودرجة تمييزه المجتمعات بعضها عن بعض .

النموذج العام للتراث الاجتماعى :

وقد أوصلتنا دراسة التراث الاجتماعى فى مختلف المجتمعات الراقية والمتأخرة إلى حقيقة اجتماعية بالغة الأهمية . إذ وجد أن تراثها الاجتماعى يحتوى على عناصر مشتركة فيما بينها وهى اللغة ، والدين ، والأسرة ، ونظام الحكم ، ونظام التملك ، والفن ، والمعرفة العلمية ، والأدوات ، والعدد وكيفية استعمالها . وتكوّن هذه العناصر التسعة ما يعرف بالنموذج العام للتراث الاجتماعى ؛ لأنه نموذج يوجد فى كل مجتمع من المجتمعات البشرية ، الراقية منها والمتأخرة .

الفصل الثانى

تسلسل التراث الاجتماعى وانتشاره

عرفت أن الفرد لا يولد فى بيئة طبيعية فحسب ، بل فى بيئة ثقافية وحضارية أيضا مكونة من عناصر التراث الاجتماعى المادية وغير المادية .

وينتقل التراث الاجتماعى من جيل إلى جيل أو ينتشر من مجتمع إلى آخر فيطرأ عليه بعض التغير نتيجة ما يحدثه الخلف على تراث السلف أو ما يحدثه أفراد المجتمع المقتبس من حذف أو إضافة أو تعديل ؛ وسيأتى تفصيل ذلك فى باب آخر . ولكن مهما يكن هذا التغير الذى يحدث لعناصر التراث الاجتماعى فإننا نساير العناصر الثقافية والحضارية التى وصلتنا عبر الزمن من الماضى وربطتنا به .

قيمة التراث الاجتماعى :

كثيراً ما يحدث أن نقلل من أهمية التراث الاجتماعى المنحدر إلينا من الماضى ؛ لأننا نعنى عناية فائقة بحاضرنا كما هو ، بغض النظر عن أصوله السالفة . ولكن استقرار أى مجتمع من المجتمعات لا يمكن أن يتم إلا نتيجة وجود العناصر التى تكون التراث الاجتماعى . فعند ما يولد الفرد فى الجماعة الأسرية وينشأ فيها ، لا يبتكر لنفسه لغة خاصة وأدوات يستخدمها لنفسه فقط أو أنواعاً من السلوك خاصة به ، وإلا تسببت عن ذلك فوضى مطلقة وتفكك المجتمع نتيجة لأن كل فرد يتصرف كما يشاء ، وتنتهى الحال بتعذر التعامل بين أفراد المجتمع الواحد بعضهم مع بعض . ولكن الواقع أن الفرد يولد فيجد عناصر التراث الاجتماعى موجودة فيقتبسها ويخضع لها كما اقتبسها وخضع لها غيره من الكبار كوالديه وإخوته الذين سبقوه فى الحياة .

وهذا يبين قيمة التراث الاجتماعى فى تماسك المجتمع وإشاعة الاستقرار فيه . ومن أجل هذا كان من أهم وظائف المدرسة فى العصر الحديث إشعار الأفراد فى مراحل التعليم المختلفة بتراثهم الاجتماعى ، أى بلغتهم وتاريخهم وعاداتهم وتقاليدهم ومكونات بيئتهم . ولا شك فى أن هذا الشعور وما يقترن به من سلوك يؤدى إلى تكوين وحدة اجتماعية متماسكة .

انتقال التقاليد من جيل إلى جيل :

من مزايا الإنسان عن الحيوان أن تقاليده تنتقل بين أفراده وجماعاته من جيل إلى جيل . ولكن التقاليد تتعدل وتتكيف أثناء انتقالها فى الجيل الواحد أو خلال أجيال قليلة كالتقاليد الخاصة بالخطبة والزواج وتكوين الأسرة ، والتقاليد الخاصة بالوضع وتربية الأطفال ، والتقاليد الخاصة بالزيارات وتبادل الخدمات ، وطريقة بناء المساكن ، وغير ذلك .

ولكن التقاليد وإن تغيرت ، فإن هناك عوامل تجعل انتقالها من جيل إلى جيل يحدث بأقل تغيير ممكن كما سيتبين لك فيما يلى :

(أولا) احترام التقاليد وتقديسها :

كان الناس فى الأزمنة القديمة يعدون التقاليد شبه مقدسة . ولا يزال هذا الشعور سائداً فى المجتمعات البدائية والمتأخرة حتى اليوم . ولذلك نشأ الاعتقاد بأن مخالفة التقاليد تجلب الضرر على الجماعة المخالفة أيا كان نوعها . ويؤكد العامة ذلك عندنا بقولهم : « قطع العوايد فال » ، أى شؤم . ولا غرابة فى ذلك ، فإن العادات المتسلسلة من جيل إلى جيل ، أى التقاليد ، تكون فى الأغلب راجحة الفائدة بتجربتها .

أما العادة الجديدة التى لم تجرب بعد ولم تكتسب صفة التقليد ، أو التى لم يتقن استعمالها فقد تؤدى إلى ضرر ، وكثيراً ما أدت إليه بالفعل ولو فى أول الأمر . لذلك عرف الناس بالتجربة أن تغيير التقاليد ضار واعتقدوا أن العادات القديمة المنحدرة إليهم من أسلافهم شبه مقدسة ويستحق من يخالفها العقاب ، ويعد الضرر الذى قد ينتج عن مخالفتها عقابا لذلك . بل ان من الناس من يعتقد فى قوة خفية وراء التقاليد تعاقب على مخالفتها . ومنهم من يعتقد أن العقاب لا يقع على الشخص المخالف وحده ، بل يتعداه إلى أهله وعشيرته ، وهذا أشد وقعا وإيلاما .

وكلما تقادمت التقاليد وتسلسلت من جيل إلى جيل زاد احترام الناس لها وأصبحت فى نظرهم لا تمس ؛ حتى إذا ما تطلبت الظروف إدخال بعض التعديل عليها فإنهم لا يكونون مطمئنين إلى ذلك ويترددون كثيراً فيه ، وإذا ما قاموا بشىء من التعديل فى النهاية كان طفيفا يكاد لا يشعر الأفراد به .

(ثانيا) رسوخ التقاليد وعدم زوالها بسهولة :

فالمعروف أن الإنسان فى مجتمعات مختلفة قد زاد علمه وأصبح يعرف الكثير عن القوانين الطبيعية ، واتضح له خطأ كثير من التقاليد والأفكار المرتبطة بها ؛ فهل أدى ذلك إلى التحرر من قيود هذه التقاليد على الرغم من ثبوت خطئها ؟

الواقع أن التقاليد لا تزول بسهولة ؛ بل انها تظل راسخة أمداً طويلا أمام الأدلة العلمية والكشوف التى لا يختلف اثنان فى نفعها للبشر . فالمرأة مثلا قد قست عليها التقاليد أجيالا طوالا بأن عدتها أدنى من الرجل فى القوة الجسمية والقدرة العقلية والمتانة الخلقية ، وأنها لا تصلح لشىء إلا للأعمال المنزلية وتربية الأطفال . ولكن العلم أثبت أن الأنثى لا تختلف عن الذكر من حيث القدرة العقلية أو المتانة الخلقية ،

وتأكد ذلك بعد أن أتيحت فرصة التعليم لبعض الإناث فى مختلف الميادين على الرغم من الصعوبات الجمة التى وضعتها التقاليد فى طريقهن . كما أن العلم قد أثبت أيضا أن الأنثى أكثر احتمالا من الذكر فى بعض النواحى الجسمية . ولذلك كانت وفيات الأطفال الرضع بين الذكور أكثر منها بين الإناث ، كما أن الإناث عامة أطول أعماراً من الذكور على الرغم من متاعب الحمل والوضع والرضاعة . فهل غيرت هذه الأفكار الجديدة من نظرة المجتمع المجحفة بالمرأة وقسوة التقاليد عليها ؟ الواقع أن التقاليد ما زالت قاسية على المرأة فى كثير من المجتمعات .

ومن أسباب استمرار التقاليد ورسوخها على الرغم من ظهور حجج العلم الدامغة ما يأتى :

(ا) ميل الإنسان إلى قبول التقاليد واتباعها ؛ لأنها قديمة انحدرت إليه عن الآباء والأجداد . وهناك إلى جانب ذلك اعتقاد بأن التقاليد لو لم تكن صالحة لما بقيت واستمرت واقتبسها الخلف عن السلف . ولذلك يصبح من الصعب تغيير تقليد صارت له فى نفوس الناس مكانة وتكونت حوله معتقدات زادها الزمان فى أذهانهم قوة . وفى ضوء ذلك تستطيع أن تفهم الأسباب التى جعلت الرسل يلاقون عنتاً كبيراً فى نشر دين الله بين قوم ضالين . فقد كان هؤلاء الضالون يتمسكون بتقاليدهم ومعتقداتهم القديمة التى وجدوا آباءهم وأجدادهم متمسكين بها . وكلما توطدت التقاليد على مر الزمان تحول بعضها تدريجياً إلى ما يشبه القانون . ومتى حدث لها هذا التحول ازدادت رسوخاً وثباتاً ، وأصبحت ذات سيطرة كبيرة على الناس .

(ب) أفكار المسنين وحكمهم الذى يجعلهم شديدى التمسك بالتقاليد القديمة المنحدرة معهم من الماضى . ولذلك لا يرضون عنها بدبلا ولا يرتاحون إلى التجديد

لأنهم ينعمون بذكريات ماضيهم . وكثيراً ما نسمعهم يرددون تلك العبارة : « الله يرحم أيام زمان » ، إذا ما حدث تغيير لأى تقليد فى المجتمع .

ولما كان التجديد يأتى عادة على أيدى الشبان المتحمسين ، فإن الشيوخ يترددون فى قبوله ، لأنهم يعتقدون فى خبرتهم الطويلة ، ويرون أن الشبان ما زالوا صغيرى السن قليلى التجربة . ومتى كانت مقاليد الأمور فى مجتمع من المجتمعات فى أيدى الشيوخ قلت — فى الغالب — فرص التجديد فيه ، وانتقلت التقاليد من جيل إلى جيل دون تغيير يذكر . ولكن متى كانت مقاليد الأمور فى أيدى الشبان كانت التقاليد عرضة للتغير ؛ لأن تقاليد الأجداد لا تكون متمكنة منهم وآخذة بألبابهم . وليس معنى ذلك أن الشيوخ لا يستطيعون الابتكار والتفكير الجرىء ، ولكن القاعدة العامة أن الشيوخ يكرهون التجديد ، أو على الأقل يترددون فى التغيير .

(ﺣ) العزلة تهيىء جواً صالحاً للتقاليد كى تتمكن وتنتشر . فالتقاليد تجد مرتعاً خصباً فى المجتمعات المنعزلة التى لا تتاح لها الفرصة للاتصال بمجتمعات أخرى . وقد يكون سبب عزلة المجتمعات بعضها عن بعض وجود عوائق طبيعية ، كالصحارى أو البحار أو الجبال أو الغابات . ففى الواحات والجزائر البعيدة عن العمران تتكون التقاليد وتستمر أجيالا طويلة . كذلك تعيش المجتمعات البدائية فى أواسط إفريقية وأستراليا فى عزلة عن المجتمعات المتحضرة التى تقرب منها ، ولذلك بقيت هذه المجتمعات بدائية غير متقدمة ، لأن عزلتها لا تتيح لأفرادها الاتصال بغيرهم ليقتبسوا منهم وينقلوا عنهم .

يضاف إلى ذلك أن هذه المجتمعات المنعزلة تحمى نفسها عادة ضد التغيير الاجتماعى ، وذلك بمحاربة كل جديد يأتى من خارجها ، والقضاء على من يتحدى التراث الاجتماعى أو يحاول أن يغيره .

(د) الاستيطان يدعو إلى التمسك بالتقاليد . فالجماعات التى تستوطن بقعة معينة ، أى تتخذها وطناً تلازمه ولا تغترب عنه ، قد تمر عليها أجيال طويلة دون أن تتغير تقاليدها ؛ لأن أفرادها يعيشون فى محيط واحد وبيئة واحدة على وتيرة واحدة . فالريفيون مثلا شديدو التمسك بالتقاليد ولا يميلون إلى التغيير ، ولا يتيحون لأنفسهم فرصة ، لأنهم قلما يسافرون أو يغتربون عن قراهم ، ولذلك نجد تقاليد المصريين القدماء منتشرة بين أهل الريف فى مصر أكثر منها بين أهل الحضر الذين أتيحت لهم فرص كثيرة للاتصال بغيرهم والاختلاط بهم والاقتباس منهم .

هكذا يتسلسل التراث الاجتماعى فى المجتمع الواحد فى صورة تقاليد ينقلها الخلف عن السلف . وقد بينا لك العوامل التى تساعد على حفظ التقاليد وإبقائها على حالها دون تغير كبير . ولكن المجتمعات لا تعيش فى عزلة تامة ، بل الواقع أنها تتصل بعضها ببعض بوسائل مختلفة سنفصلها فيما بعد . وتختلف نتائج هـذا الاتصال باختلاف المجتمعات :

فمن المجتمعات ما يستفيد من كل فرصة من فرص الاتصال ؛ لكى يقتبس عادات جديدة من المجتمعات الأخرى ، كما فعل المجتمع التركى الحديث مثلا ، إذ نقل الكثير من التراث الاجتماعى الغربى . وقد سارت مصر على هذا النهج أيضاً ، فهى ترسل النابهين من شبابها إلى الدول الخارجية كفرنسا أو إنجلتره أو أمريكا أو غيرها من الدول للبحث والدراسة . وليس من شك فى أن هؤلاء المبعوثين قد اقتبسوا الكثير من عادات هذه الدول وتقاليدها ، كما أنهم نقلوا إلى تلك الدول شيئاً عن وطنهم .

وعلى العكس من ذلك نجد مجتمعات تكره كل غريب عنها ، ولا ترغب فى اقتباس أى شىء من الدول الأخرى ، حتى إنها لتجتهد أن تنفصل عن بقية العالم عن طريق فرض عقوبات صارمة على من يخالف هـذا الاتجاه ويحاول أن يتصل بمجتمعات أخرى للاقتباس منها . وهذا ما تفعله القبائل البدائية التى تكره التغير أو التجديد .

اتصال المجتمعات بعضها ببعض

تتصل المجتمعات بعضها ببعض بطرق شتى أهمها :

(ا) التجارة :

وهى وسيلة قديمة جداً من وسائل اتصال المجتمعات بعضها ببعض ؛ إذ ينتج عنها أساساً نقل السلع المختلفة من مجتمع إلى آخر . وكثيراً ما تحتفظ هذه السلع بأسمائها الأصلية ، فتدخل فى لغة المجتمع المشترى لها . وتحتاج التجارة إلى تنقل التجار من مكان إلى آخر ، والإقامة فى بعض الأقطار فترات غير قصيرة تكفى لانتقال بعض العادات منهم إلى أفراد المجتمع الذى يقيمون فيه . كما تكفى أيضاً لاكتسابهم بعض عناصر التراث الاجتماعى لهذا المجتمع . وهكذا يؤثرون و يتأثرون فى الوقت ذاته .

(ب) الحروب والاستعمار :

ينتج عن الحروب والاستعمار أن جنود مجتمع أو أفراده يقيمون فى مجتمع آخر ، و يتعاملون مع أفراد هذا المجتمع الآخر سواء أرضوا أم لم يرضوا ، فيؤدى ذلك إلى اتصال المجتمعين أحدهما بالآخر . وقد يقلد المجتمع المغلوب من تلقاء نفسه المجتمع الغالب ، و يقتبس من عاداته وتقاليده والوسائل المادية التى يستعملها . وقد يأخذ عنه لغته أيضاً ؛ وربما فعل ذلك مضطراً إذا ما ألزمه المستعمر بمحاكاته . أما إذا تكوّن بين أفراد المجتمع المحتل وعى بكره المستعمر فإنهم ينفرون منه ومن كل ما يمت إليه بصلة ، و يزدادون تمسكا بعاداتهم وتقاليدهم التى أخـــذوها عن أجدادهم ؛ تلك العادات والتقاليد التى تجعلهم يختلفون عن المستعمر . وهذا ما حدث فى كثير من الدول التى استعمرتها تركيا ، وقد ساعد على ذلك أن الأتراك كانوا إذا احتلوا دولة يعيشون بمعزل عن أهلها ، ولا يختلطون بهم إلا اختلاطاً ظاهراً محدود النطاق ، فكان أثرهم تافها .

(حـ) التبادل العلمى :

ويعد من أقوى وسائل الاتصال بين المجتمعات فى وقت السلم ؛ لأنه يعتمد على إقامة بعض أفراد المجتمع المتعلمين فى مجتمعات أخرى للبحث والدراسة ، كما يعتمد على تبادل المؤلفات فى شتى العلوم والآداب والفنون . وكم من أفكار ونظريات ومبادئ انتقلت فى هذه المؤلفات من مجتمع إلى آخر فأحدثت فيه آثاراً بعيدة المدى .

(د) سهولة المواصلات :

وقد يسر اتصال المجتمعات بعضها ببعض سهولة المواصلات وسرعتها ودقة تنظيمها .

(هـ) اعتراف كثير من الدول بأهمية هذه الاتصالات :

تعترف دول كثيرة بأهمية اتصال المجتمعات ، ولذلك فهى تتعاون بعضها مع بعض فترسل كل منها مبعوثيها إلى الأخرى ، للاستزادة من العلم ، والاستفادة من خبراتها التى اكتسبتها نتيجة تجربة نظم معينة ونظريات مختلفة صادفت نجاحا كبيرا . كما أن بعض الدول أصبحت تقبل بل تستضيف المتفوقين من أفراد الدول الأخرى . وللجامعة العربية أثر كبير فى توطيد الصلات بين الدول العربية ، كما أن التعاون الثقافى بين الدول الشرقية والدول الغربية قد ظهر بصورة واضحة فى « هيئة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة » التى تسمى « يونسكو (Unesco)[1] » . وتعمل هذه الهيئة على تحقيق تعاون الدول فى النواحى التربوية والعلمية والثقافية . ويتجه نشاطها نحو رفع مستوى التربية ونشر التعليم فى العالم ، وتستخدم فى ذلك وسائل مختلفة منها عقد المؤتمرات الدولية والحلقات الدراسية التى يحضرها مندوبون عن دول مختلفة ، هى الدول الأعضاء فى هذه المنظمة .

(١) Unietd Nations Educational, Scientific and Cultural Organiization

الفصل الثالث

مميزات التراث الاجتماعى المصرى

للمصريين تراث اجتماعى خاص بهم يمتازون به عن أفراد المجتمعات الأخرى ، سواء أكانت شرقية أم غربية . والتراث الاجتماعى المصرى فى العصر الحاضر هو مجموع ما وصل إلينا من أسلافنا فى الماضى من عناصر حضارية وثقافية مختلفة ؛ بعضها مصرى صميم ، و بعضها مقتبس من مجتمعات أخرى اتصل بعض أفرادها بمجتمعنا على مر العصور بوسائل الاتصال المختلفة التى وضحناها فى الفصل السابق ، وأهمها الحروب والاستعمار والتجارة .

وسواء أكانت هذه العناصر الحضارية والثقافية قد وصلت إلينا دون تغيير يذكر أم بعد تعديل كبير ، فإن الذى يعنينا من أمرها أن نعرفها على حالها الراهنة كما هى ؛ لأن البحث عن أصولها الأولى معقد يحتاج إلى دراسة متخصصة عميقة . ولكنك تستطيع أن تفسر كل ظاهرة منها فى ضوء ما درسته من تاريخ مصر وجغرافيتها ومجتمعها .

ودراسة المجتمع المصرى بالطريقة التى اتبعتها فى السنة الأولى الثانوية تعد أساسا سليما لدراسة التراث الاجتماعى المصرى والتعرف على عناصره الحضارية والثقافية المختلفة ، وتكوين فكرة واضحة عن الخصائص القومية ، أى السمات العامة للشعب المصرى التى تنتشر بين الأغلبية الساحقة من أفراده انتشارا يجعلنا نعدها من صفاتهم التى تميزهم عن الشعوب الأخرى .

أهم العوامل المؤثرة فى السمات العامة للشعب المصرى :

ومن أهم العوامل التى جعلت للشعب المصرى طابعا خاصا يميزه عن غيره تلك الظروف الجغرافية والأحوال السياسية التى أثرت فى تفكير الناس وآرائهم واتجاهاتهم وسلوكهم تأثيرا عميقا زاد على مر الزمان قوة وثباتا . أما الظروف الجغرافية فيتصل معظمها بالنيل والزراعة ؛ وأما الأحوال السياسية فتتصل بتاريخ البلاد وما مرت به من عهود الاحتلال الأجنبى .

النيل والزراعة :

اعتمدت مصر منذ القدم على الزراعة اعتمادا كبيرا ، واعتمدت الزراعة بدورها على النيل الذى يجرى وفق نظام رتيب ألفه النـاس فنظموا شئونهم بمقتضاه منذ آلاف السنين . إنه يفيض فى أواخر الصيف من كل عام ويترتب على فيضانه قيام الناس بنشاط خاص ، ثم يتغير هذا النشاط على مدار السنة تبعا لمقدار ما يأتى به النيل من ماء . فكان لذلك أثره فى تواكل كثير من المصريين وتمسكهم بمـا هم فيه أو ما تعلموه عن الآباء والأجداد .

والواقع أن النيل والزراعة قد جعلا معظم المصريين محافظين شأنهم فى ذلك شأن جل الشعوب الزراعية . وأدت المحافظة إلى تمسك المصريين بتراثهم الاجتماعى الذى انحدر إليهم من الماضى .

وبيئة مصر الزراعية إذن بما فيها النيل مسئولة إلى حد كبير عن بساطة حياة أغلب المصريين ، وطيبة قلوبهم ، وكثرة تواكلهم ، وقوة إيمانهم بالقدر ، وشدة تمسكهم بالقديم ، وكرههم لتغيير أسلوب حياتهم . وأدت البيئة الزراعية المبسطة فى مصر إلى وجود شخصيات منبسطة مرحة ساذجة مؤمنة .

تاريخ مصر :

وقد تعرضت مصر فى تاريخها الطويل لكثير من ألوان الغزو والاحتلال ، ونزح إليها الأجانب من شعوب مختلفة ، فكان لذلك كله تأثير واضح فى التراث الاجتماعى المصرى . ولكن المشاهد أنه حين يفد على مصر المحافظة عنصر حضارى أو ثقافى جديد لا يلغى ما بها من عناصر قديمة ، وإنما يبقى فى الغالب إلى جانبه ، ولا يتعذر التمييز بينهما على الباحث المدقق .

وقد تعامل المصريون كثيرا مع المستعمرين الأجانب ، فأدى ذلك إلى إيجاد شخصيات منطوية ملتوية شكاكة متبرمة لا تثبت على حال واحدة ؛ لأن الاستعمار يحمل فى طياته إلى الدول المحتلة الشقاء والذلة والظلم والاستبداد . ومن مصلحة المستعمرين الأجانب فى أى بلد يحتلونه أن يتولى مقاليد الأمور فيه إما جاهل يسخرونه لخدمة أغراضهم الاستعمارية ، أو خائن يبيعهم وطنه ، أو فاسد يسهل عليهم إرضاء نزواته وصرفه عن مصلحة بلاده . ولقد قاسى المصريون فى تاريخهم الطويل من هؤلاء وأمثالهم كما قاسوا على أيدى المحتلين سواء بسواء .

ولقد رأى كثير من المصريين مع الأسف أن يحتموا من ظلم المستعمر وجور مساعديه باكتساب صفات أبرزها النفاق والملق ، والتنصل من المسئولية ، وتهوين الأخطاء ، والشك فى كل ما هو غريب ، والتعامل السلبى مع رجال الإدارة ، والانتقام ممن يكرهونه بترويج الشائعات الضارة به وجعله هدفا للنقد أو الفكاهات أحيانا .

ولا ينكر أحد أن هذه الصفات غير مرغوب فيها ؛ ولكنها كما ترى دخيلة على طبيعة الشعب المصرى لا أصيلة فيه . وإن المصلحين ليهتمون بتغيير هذه الصفات

واستبدال صفات أخرى حسنة بها . ولـكن الصفات التى تتكون على مر السنين والأيام لا يمكن محوها بين عشية وضحاها ؛ بل يحتاج ذلك إلى تدريب طويل مع توجيه وإرشاد وفق خطة مدبرة ، كما يحتاج إلى إعادة تنظيم المجتمع من جديد تنظيما يتفق مع الحياة الحديثة والحرية التى نالتها مصر بعد التخلص من الاستعمار .

عناصر التراث الاجتماعى المصرى وميزاتها

ولـكى تكون دراستنا للتراث الاجتماعى المصرى سهلة ، يحسن أن نحلله إلى عناصره الأساسية التى يتكون منها ، ثم نبحث كل عنصر على حدة . ولما كانت العناصر الحضارية من الوضوح بحيث تسهل ملاحظتها وتصنيفها إلى أصيل ودخيل ، رأينا أن نركز الدراسة حول العناصر الثقافية التى تـكون بحق أساسا لتمييز شعب كل مجتمع عن غيره من الشعوب الأخرى . وأهم هذه العناصر اللغة ، والدين ، والأسرة ، والتعليم ، والاقتصاد ، والادارة ، والقضاء ، والترفية . وفيما يلى نبذة عن كل عنصر من هذه العناصر ؛ على أن تلاحظ أن هذه النبذ مبنية فى مجموعها على ما نشاهده بين عامة المصريين وجلهم من أهل الريف الذين يكونون قرابة خمس وسبعين فى المائة من الشـعب المصرى . ولـكن مفهوما أننا ما زلنا فى حاجة إلى دراسة هذه العناصر دراسة دقيقة مبنية على أسس علمية سليمة .

اللغــــة :

تميز اللغة العربية الشعوب الشرقية التى تتكلم بها عن غيرها من الشعوب ؛ ولـكن اللهجة المصرية العامية تميز المصريين عن غيرهم من الناطقين بالضاد . وقد تأثرت اللغة المصرية العامية ولهجتها بلغات الأقوام الذين عاشوا على ضفاف النيل .

وربما يدهشك أن تعرف أن اللغة المصرية العامية تحتوى على كثير من الكلمات التى كان يستعملها الفراعنة القدماء . ومن أمثلة هذه الكلمات ما نستعمله فى مجتمعنا الحاضر مثل ست ، وسى ، وجدع ، ومدمس ، و بصارة ، وكثير من الاصطلاحات الطبية الشعبية مثل صداع وزكام . وتشمل لغتنا العامية أيضا كثيرا من المفردات اليونانية ، والرومانية ، والتركية ، والفرنسية ، والايطالية ، والانجليزية .

الدين :

الإسلام دين الأغلبية فى مصر ؛ فنسبة المسلمين حسب التعداد العام للسكان لسنة ١٩٤٧ قد بلغت ٩١٫٧ ٪ من مجموع السكان ، بينما نسبة المسيحيين ٧٫١ ٪ من جملة السكان . والمصريون سنيون و يتبع أغلبهم المذهبين الشافعى والمالكى ؛ و يطبق المذهب الحنفى فى الأحوال الشخصية كالزواج، والطلاق ، والنفقة ، والمواريث. ويتبع أغلب المسيحيين المذهب الأرثوزكسى . والمصريون شعب متدين ، ويحظى رجال الدين باحترامهم . ويلعب الدين دورا هاما فى سلوك المصريين وتفكيرهم ، ولاسيما فى الريف ، كما أن له أثرا بارزا فى كثير من علاقاتهم الاجتماعية . وكثيرا ما تتردد هذه العبارات على الألسنة ، حتى فى الحديث العابر : « دا حرام » ، « ربنا مطلع على عبيده » ، « بينى و بينه حد الله » ، « يروح من ربنا فين » .

الأســـرة :

يفضل عامة المصريين الزواج المبكر ؛ لأنه على حد تعبيرهم يعصمهم من الزلل . و يشجعهم على ذلك انخفاض مستوى معيشة عامتهم وقناعتهم بالضرورى من مطالب الحياة . وتخطب الفتاة عادة لمهارتها فى تدبير شئون البيت ، ولجمالها، ومالها ، وماتملكه من أرض أو عقار ؛ وقد تفضل المتعلمة التى تعمل بمرتب شهرى . و يخطب للشاب

عادة أقاربه الإناث أو صديقاتهن أو خاطبة محترفة ، أى أن الزواج يبنى عادة على الوساطة ، وقلما يخطب الشاب الفتاة بنفسه دون تدخل أحد من أقاربه . ويشترط أن تكون الخطيبة أصغر سنا من الشاب الذى يخطبها ، وقد يفضل زواج الأقارب . والبدانة مرغوبة فى الفتاة وبخاصة بين غير المتعلمين لأنها فى نظرهم تعد دليلا على العز والصحة .

ويحب المصريون أن يكون لهم أطفال كثيرون ؛ ويفضلون الذكور على الإناث لتقوية عصبيتهم وحفظ ممتلكاتهم مهما كانت قليلة ، وكذلك لحفظ اسم الأسرة على مر السنين ، ومن أجل هذا يعد العقم كارثة تقض مضجع الزوجة . وتتلهف الزوجة على الخلف عادة (وبخاصة خلف الذكور) لأن فى ذلك ضمانا لوفاء الزوج واستقرار الأسرة ، وتأمينا ضد الطلاق الذى تخشاه الزوجة .

ويربى الأطفال عادة فى كثير من الرحمة ، ويكثر تدليل الذكور فى الأعم الأغلب للأسباب السالفة الذكر . وربما كان هذا السلوك مسئولا عما يبدو على بعض الشبان المصريين من دلائل عدم النضج الاجتماعى الذى غالبا ما يظهر فى صخبهم ، وشدة انفعالهم ، وسهولة انقيادهم ، وصبيانية حركاتهم . وتربى الفتاة على أنها من الجنس الضعيف ، الخجول ، المنطوى ، المتحفظ ، التابع للرجل ؛ كما تحاط برعاية كبيرة . وتنشأ الفتاة منذ الصغر على احترام الذكور فى أسرتها ، والحذر من الذكور عامة ، والابتعاد عنهم .

والسيطرة فى البيت للرجل بوجه عام ؛ فالزوجة والأطفال يحترمون الأب ؛ وكثيرا ما تخصه الزوجة بأطيب الأطعمة ، وتفضله فى ذلك على أطفالها فى حالات كثيرة .

وللعصبية أهمية كبرى عند عامة المصريين ؛ لأنها تكسبهم قوة واحتراما ، وتضمن لهم أمانا من الجور والظلم . ومما يقوى العصبية بين الفلاحين بوجه خاص حياتهم

ريفية الساذجة ؛ وإنا لنسمع بينهم المثل القائل : « أنا وأخى على ابن عمى ، وأنا وابن عمى على الغريب » . أما فى المدن فإن العصبية تضعف حتى إنها لتختفى فى حالات كثيرة ؛ إذ لا يحتاج الفرد فى المدن إلى أقارب يحتمى فيهم أو يعتز بهم ضد أى معتد بل يعرف عادة قيمة رجال الأمن وأنهم يسهرون للمحافظة عليه وعلى متاعه .

التعليم :

كان التعليم ولا يزال هو الطريق إلى الوظائف الحكومية فأصبح المتعلمون يحترمون إما لما يشغلونه من وظائف أو لما نالوه من معرفة لاتوجد مع الأسف عند كثيرين غيرهم من المصريين . وما زال كثير من الآباء والأمهات يرون أن أساس ارسال أبنائهم إلى المدارس هو اعدادهم للوظائف الحكومية . ويعنى سكان الحضر بتعليم بناتهم لا فرق بينهن و بين البنين فى ذلك ومن أجل هذا تزداد نسبة المتعلمات زيادة مطردة . وتعلم كثير من الإناث وحصولهن على أرقى المؤهلات قد أدى إلى ارتفاع وعيهن ومطالبتهن بكثير من الحقوق التى يتمتع بها الرجال . وهن الآن يشغلن وظائف كانت من قبل وقفا على الرجال وحدهم كالمحاماة ، والطب ، والكيمياء ، والصيدلة ، وكثير من الوظائف الحكومية . وتحظى النساء الموظفات باحترام كبير .

الاقتصـــاد :

النظام الاقتصادى السائد فى مصر نظام رأسمالى أساسه الملكية الفردية . ويحب المصريون امتلاك الأراضى الزراعية مهما صغرت مساحتها ، ومعظمهم لا يفرط بسهولة فيما يؤول إليهم من هذه الأراضى عن طريق الميراث ولو كان بضعة قراريط . وهذا يفسر انتشار الملكية القزمية بين الفلاحين ؛ إذ يمتلك قرابة ٧٠ ٪ من الملاك حوالى ١٣ ٪ من الأراضى الزراعية . ومنذ بدء القرن الحالى والنظام الرأسمالى فى مصر يطعم

تدريجيا بعناصر اشتراكية تتركز فى تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى بفرض قوانين مختلفة لتقييد الحرية الفردية فى رأس المال التى يخشى من طغيانها واستغلالها. ففرض مختلف الضرائب المباشرة وغير المباشرة، وتحديد المساحات التى تزرع قطنا أو قمحا، وتقدير حد أدنى لبعض الأجور، وتحديد الأسعار والأرباح والملكية الزراعية، كل ذلك مظاهر لتدخل الدولة لحماية الأغلبية المحدودة الدخل من الأقلية صاحبة رأس المال.

ويعتمد معظم السكان على الزراعة كما ذكرنا. والقطن هو المحصول الرئيسى الذى تعتمد عليه اقتصاديات البلاد إلى درجة كبيرة. أما الصناعة فلا زالت فى المرتبة الثانية، ولكنها تنمو بسرعة فائقة ويرجى لها ازدهار كبير.

ومن الظواهر ذات الأهمية أن كثيرا من النساء تشترين الحلى لتتزين بها ثم يبعنها عند الأزمات المختلفة التى تعترض الأسرة: كالوفاة، والمرض، والزواج، والوضع. وفى بعض الأحيان يباع الحلى لشراء أرض زراعية أو بعض العقار.

الادارة والقضـاء :

يهاب المصريون منذ القدم رجال الادارة لما لهم من سلطة وأهمية فى تصريف الأمور. وللحاكم عند المصريين رهبة شديدة. وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الاستعمار قد دفع كثيرا من المصريين إلى مداهنة الحاكم وتملقه، الأمر الذى جعله يستكبر ويطغى.

وقد أثبتت بعض الأبحاث أن المصريين شعب يحب المقاضاة. ويظهر أثر الظلم الذى استهدف له المصريون فى دعواتهم وأمثالهم الكثيرة مثل: « الله لا يوقعك فى

يد حاكم ظالم » ، « الله ينصرك على من يعاديك » ، « من عاش بعد عدوه يوم بلغ المنى » ، « اصبر على الجار السو ، يا يرحل يا تجيله مصيبة تاخده » ، « لك يوم يا ظالم » .

الترفيـــة :

يحب المصريون بوجه عام أن يخلدوا إلى الراحة فى أوقات فراغهم ؛ فيجلس الريفيون عادة على المصاطب بينما يجلس أهل الحضر فى المقاهى . وتؤدى المقاهى إلى حد كبير وظيفة الأندية الاجتماعية ففيها يستضيفون الأصدقاء ، وقد يعقدون بعض الصفقات التجارية ، ويتحادثون فى شئونهم الخاصة وفى الأمور العامة .

والمصريون يحبون السمر والدعابة ؛ كما أنهم حاضرو البديهة بارعون فى إرسال الفكاهات فى شتى الموضوعات ؛ ولهم نوع من الدعابة يسمى « القافية » لا يوجد له نظير فى مجتمعات كثيرة . وللمصريين ولع بالغناء وإن كانت نغمات غنائهم تميل إلى الحزن فى كثير من الحالات ولها توقيع خاص يشبه إلى حد كبير توقيع النادبات فى الجنائز . ويطربون كثيرا من المغنى الذى يكثر من عبارات اللوم والحزن وأنغامهما .

ويقبل كثير من الشبان على الرياضة البدنية ؛ وبخاصة كرة القدم التى يولعون بمشاهدة مبارياتها كما يقوم صغارهم بلعبها فى الساحات الكبيرة التى تقل فيها حركة المرور . وللرياضيين المصريين شهرة عالمية فى رفع الأثقال والسباحة ولعب كرة الحائط (اسكواش) .

مميزات أخرى :

يميل المصريون إلى الألفة بسرعة ؛ كما أنهم لا ينسون المعاشرة . وتعد المشاركة فى تناول الطعام أساسا من أسس التعارف ، ويشار إلى ذلك بعبارة « أكل العيش والملح » .

ويميل المصريون إلى الإسراف فى إظهار حزنهم وفرحهم ؛ ويحبون الفخر والمباهاة ، حتى فى إقامة المآتم ، غير مبالين بما قد ينتج عن ذلك من دين أو ضيق مادى .

ويمتاز المصريون بالشهامة التى تظهر فى استعدادهم للمعاونة فى أوقات الشدة . كما أنهم كرماء لضيوفهم ، يجودون لهم بما عندهم ، ويبشون فى وجوههم .

والمصريون قوم سريعو الانفعال ، فهم يغضبون بسرعة كما يتصافون بسرعة أيضا . أما الانتقام والأخذ بالثأر فعادة اكتسبها سكان مصر العليا وأصبحت من تقاليدهم ، وهى من غير شك عادة يجب التخلص منها .

ويميل عامة المصريين إلى المسالمة والبساطة . وهم أذكياء فى مجموعهم .

تلك بعض مميزات التراث الاجتماعى المصرى ؛ وهى فى مجموعها تكون صورة واضحة المعالم لأفكار المصريين وآرائهم وسلوكهم . ولئن كانت بعض الدول الشرقية تشترك معنا فى بعض عناصر تراثنا الاجتماعى ؛ فذلك راجع إلى تشابه بعض الظروف الجغرافية التى تحيط بنا وبهم ، كما أنه راجع إلى كثير من الظروف التاريخية التى مررنا بها جميعا . ولكن مهما يكن من أمر هذا التشابه فى بعض عناصر التراث الاجتماعى فلكل مجتمع صورة كلية لتراثه خاصة به تميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى .

الباب الرابع

النظم الاجتماعية

النظم الاجتماعية

نقصد بالنظام الاجتماعى مجموعة أنماط السلوك الذى يسلكه أغلب أفراد جماعة من الجماعات أو أغلب أفراد مجتمع من المجتمعات ، وتلقى هذه الأنماط قبولا عاماً فى تلك الجماعة أو ذلك المجتمع . ويكون السلوك عادة متعلقاً بظروف خاصة ، فيتكرر إذا ماتكررت هذه الظروف . ومن أمثلة ذلك ما عرفته عن النظام الاجتماعى الخاص بالخطبة والزواج . فللفرد حاجات طبيعيـة أهمها حاجته إلى حفظ نوعه كى لا ينقرض ، تلك الحاجة التى تجعله يتزوج وينتج الأطفال ، أى يكوّن أسرة . ولكى يتزوج الفرد ويكون أسرة ينبغى عليه أن يسلك أنواعا من السلوك متعلقة بالخطبة والزواج ولكنه حين يسلك هذه الأنواع من السلوك يتبع عادات وعرفا وتقاليد معينة تسود فى المجتمع ، وتحظى بموافقة عامة . ويطلق اسم « النظام الأسرى » على مجموعة السلوك الخاصة بتكوين الأسرة .

وقياساً على ذلك نجد أن حاجة الإنسان إلى الغذاء والكساء والمسكن وما يلزمه من أثاث وأدوات تتطلب أنواعاً خاصة من السلوك متعلقة بالعمل والسعى وراء الرزق للحصول على هذه المطالب وفق عادات وعرف وتقاليد معينة تسود بالمجتمع ، وتصادف قبولا عاماً . ويطلق اسم « النظام الاقتصادى » على مجموعة السلوك الخاصة بالإنتاج والاستهلاك وما يرتبط بهما من أجور وأسعار وشروط عمل .

وحاجة الإنسان إلى الشعور بالأمن من الجور أوجدت « النظام القضائى » . وحاجته إلى تدبير شئونه العامة ، والمحافظة على صحته ورفع مستواه وتأمينه على حياته أوجدت « النظام السياسى » . وحاجته إلى الراحة الذهنية والطمأنينة على سعادته فى الدنيا والآخرة أوجدت « النظام الدينى » . . . وهلم جرا .

ولما كان سلوك الفرد مرتبطاً أوثق ارتباط بالتراث الاجتماعى للمجتمع الذى يعيش فيه ، فإن النظم الاجتماعية تعد مجموعات من الحضارة والثقافة مكونة بشكل خاص . فالنظام الأسرى (أى الأسرة) مثلا مركب ، كما عرفت ، من عناصر ثقافية متعلقة بالخطبة ، وعقد العقد ، والزفاف ، والحمل ، والوضع ، وتربية الأطفال ، وعلاقة الزوجين أحدهما بالآخر ، وعلاقتهما بالأطفال ، كما أنه مركب أيضاً من عناصر حضارية ، أى مادية ، خاصة بالهدايا التى تقدم ، والصداق ، والحفل الذى يقام وما يقدم فيه من طعام وشراب ، و «النقوط» ، والملابس الخاصة ، والأثاث والأدوات التى تجهز بها العروس ، والمسكن الذى يسكنه الزوجان ، وغير ذلك من العناصر المادية .

ويمكن تحليل كل نظام من الأنظمة الاجتماعية على هذا النحو لمعرفة تركيبه ووظيفته والعوامل المختلفة التى تؤثر فى هذا التركيب وهذه الوظيفة .

وسنتناول فى هذا الباب نظما اجتماعية ثلاثة هى : الأسرة ، والنظام الاقتصادى ، والنظام السياسى ؛ لأنها أصبحت فى العصر الحاضر محوراً لدراسات ومناقشات كثيرة .

(أ) الأســـــرة

الفصل الأول

تكوين الأسرة ووظائفها

تبيّن مما سبق أن الأسرة من أهم الجماعات التي يتكون منها المجتمع إن لم تكن أهمها كلها ؛ لأنها أول جماعة يولد فيها الفرد وينشأ مع غيره من الأفراد الذين يكونونها ، وتنشأ بينه وبينهم علاقات مختلفة . وتتكون الأسرة عادة من الزوج والزوجة والأطفال، أي من جيلين يشتركان معاً في معيشة واحدة ؛ لأن الزوجين يكونان جيلا سابقاً ، والأطفال يكونون جيلا لاحقا . فيعلم الجيل السابق الجيل اللاحق ، وينقل إليه حضارة المجتمع وثقافته كما ذكرنا من قبل . وقد تتسع الأسرة وتكبر إذا شملت أفراداً آخرين يقيمون مع الزوجين والأطفال ، كالأجداد والجدات ، والخالات أو العمات ، والأخوال أو الأعمام وذريتهم . وهذا كثير الحدوث في المناطق المصرية الصميمة كالريف ، وأجزاء من المحافظات والبنادر والمراكز التي لا تزال تحتفظ بالتقاليد المصرية القديمة .

والزوجان اللذان لا يكون لهما نسل لا يكونان أسرة بالمعنى الصحيح . ويمكن أن نصف الجماعة التي تتكون منهما بأنها أسرة ناقصة محدودة العلاقات والوظائف . فوجود الأطفال يوسع دائرة الأسرة ، ويزيد الوظائف والعلاقات الاجتماعية التي تتكون فيها نتيجة تعامل الأطفال مع الوالدين من جهة ، وتعاملهم مع بعضهم بعضا من جهة أخرى . ولهذه العلاقات الاجتماعية آثار بالغة الأهمية لا تقف في حياة الأطفال فحسب بل في حياة الوالدين أيضا . فوجود الأطفال يقوى الروابط ما بين الزوجين ، ولذلك كانت نسبة الطلاق بين الأزواج عديمي الذرية أعلى منها بين من كان لهم خلف . فالأطفال من هذه الناحية يعدون دعامات لتثبيت صرح الأسرة . أما من حيث الوظائف التي تؤديها الأسرة ، سواء داخل إطارها كتلك التي تؤديها للأطفال ،

أو خارج إطارها أى فى المجتمع ، فإن هذه الوظائف تقل أو تكثر تبعاً لوجود الأطفال أو عدم وجودهم . فالزوجان اللذان لا يخلفان وراءهما فى المجتمع ولو طفلا واحداً لا يتركان ما يحل محلهما فى البناء الاجتماعى .

الزواج :

وتتكون الأسرة فى المجتمعات المختلفة عن طريق الزواج . فالزواج نظام اجتماعى تبدأ به الأسرة وتبنى عليه . وهو نظام معترف به فى كل زمان ومكان ، كأساس لنشأة العلاقات الأسرية ، كما أنه النظام المشروع الذى يرضى عنه المجتمع لإنجاب الأطفال . والزواج ضرورة اجتماعية لصالح المجتمع ؛ إذ هو إلى جانب انه ينظم كثيراً من العلاقات بين الذكور والإناث ، فإنه يؤدى إلى عمران المجتمع بالناس الذين لولاهم لما تكوّن المجتمع ؛ كما أن المجتمع يسعى إلى أن تكون العلاقات بين الجنسين على أساس منظم يخضع لقوانين اجتماعية ولأحكام دينية .

نظاما الزواج :

للزواج نظامان شائعان منذ القدم : زواج فردى يتزوج فيه الرجل الواحد امرأة واحدة ، وزواج جمعى يتزوج فيه الرجل الواحد عدة نساء فى وقت واحد ، أو تتزوج فيه المرأة عدة رجال فى وقت واحد . والزواج الجمعى لا يوجد إلا فى مناطق قليلة ومحدودة جداً .

(١) الزواج الفردى : وهو النظام الذى يكون فيه للرجل زوجة واحدة . وهو النظام السائد فى جميع دول العالم و بخاصة فى الدول المسيحية ، لأن الدين المسيحى لا يعترف بأى نظام آخر للزواج غيره . أما الشريعة الإسلامية فتزكى الزواج الفردى

على أنه قاعدة عامة ، ثم إنها فى حالات استثنائية خاصة تسمح بأن يكون للرجل أكثر من زوجة فى حدود أربع زوجات . ولقد كان الزواج الفردى ولا يزال هو الشائع فى الدول الإسلامية .

ويتضح من الجدول الآتى أن نسبة الزواج الفردى بين المتزوجين من المسلمين فى مصر لا تقل عن ٩٦ ٪ فى متوسط التعدادات الثلاثة الأخيرة . ومعنى ذلك أنه النظام السائد فى مصر ، وأن ظاهرة تعدد الزوجات عندنا استثناء من قاعدة عامة هى الزواج الفردى .

• المسلمون المتزوجون حسب عدد زوجاتهم والنسبة المئوية لكل فئة إلى الجملة فى التعدادات ١٩٢٧ — ١٩٤٧ (*)

عدد الزوجات	١٩٢٧		١٩٣٧		١٩٤٧	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
واحدة	٢٤٢٠٣٦٢	٩٥٫١٨	٢٧٣٣٣٠٢	٩٦٫٨٦	٢٩٧١٧٩٥	٩٦٫١٤
اثنتان	١١٤٢٤٧	٤٫٤٩	٩١٧١٢	٢٫٩٥	١١١٧٤٦	٣٫٦٢
ثلاث	٧٣١٨	٠٫٢٩	٥١٦٩	٠٫١٧	٦٥٧٣	٠٫٢١
أربع	٧٩١	٠٫٠٤	٥٢٠	٠٫٠٢	٨٨٨	٠٫٠٣
الجملة	٢٥٤٢٨١٨	١٠٠	٢٨٣٠٧٠٣	١٠٠	٣٠٩١٠٠٢	١٠٠

(ب) الزواج الجمعى : وهو نوعان . الأول تعدد الزوجات ، وهو أن يكون للزوج أكثر من زوجة واحدة فى وقت واحد ، وقد يعزى حدوثه فى بعض المجتمعات إلى وفرة النساء وزيادتهن على الرجال عددا ، وقد يعد فى مجتمعات أخرى

(*) الإحصاء السنوى للجيب . مصلحة الإحصاء والتعداد ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

دليلا على العز والجاه ؛ لأن الذى يتزوج أكثر من زوجة واحدة فى وقت واحد يكون فى الغالب قادراً على الإنفاق عليهن وعلى أطفاله منهن . وقد تكون هناك عوامل أخرى تدفع بعض الرجال إلى الزواج بأكثر من زوجة واحدة ، كمرض الزوجة الأولى أو عقمها أو كبر سنها أو عدم الإتفاق فى المسائل الجوهرية . ويتضح من الجدول السابق أن نسبة المتزوجين بأكثر من واحدة فى مصر ضئيلة جداً فى التعدادات الثلاثة الأخيرة ، بل إنها آخذة فى النقصان .

والنوع الثانى من الزواج الجمعى هو تعدد الأزواج . وهو أن يكون للزوجة أكثر من زوج واحد فى وقت واحد . وهذا النوع نادر الحدوث جداً وبخاصة فى زماننا هذا ، فلا يوجد إلا عند قلة محدودة من القبائل المتأخرة الموجودة فى جنوب الهند والمعروفة بالتودا ، وعند قبائل التبت فى شمال الهند ، وعند بعض قبائل الاسكيمو . ويعزى حدوثه فى بعض المجتمعات التى يشيع فيها إلى قلة النساء وزيادة عدد الرجال . وقد كان هذا الشكل من الزواج شائعاً فى جزيرة نيوزيلند ، وفى جزائر المحيط الهادئ ، وعند بعض القبائل المتأخرة فى جنوب إفريقيا ، وفى جزيرة مدغشقر ، كما كان معروفاً عند بعض قبائل العرب فى الجاهلية ، ولما جاء الإسلام ألغاه .

قيود الزواج :

لا يباح فى المجتمعات البشرية زواج الرجل من المرأة إلا فى حدود معينة . فهناك قيود كثيرة تقيد حرية الفرد فى اختيار زوجته . وقيود الزواج نظام اجتماعى شائع فى كل المجتمعات البشرية ، وإن كانت تختلف اختلافا كبيراً فى نوعها باختلاف المجتمعات . وأهم هذه القيود :

(١) قيود ترجع إلى القرابة . وهى قيود لا يخلو منها أى مجتمع بشرى ، قديماً كان أو حديثاً ، بدائياً كان أو راقياً . وتسمى فئة النساء اللاتى يحرم

الزواج منهن بسبب القرابة باسم « المحارم » . ويلخص القرآن الكريم محارم القرابة فى سورة النساء .

(ب) قيود ترجع إلى المصاهرة . وهى قيود موجودة فى كثير من المجتمعات البشرية ، وتحرم التزاوج بين أفراد معينين . ففى الشريعة الإسلامية أم الزوجة وأختها وابنتها من زوج سابق محرمات على الزوج . كما أن زوجة الابن محرمة على والده.

(ح) قيود ترجع إلى الرضاع . وأساسها أن الرضاعة توجد قرابة كقرابة النسب بين المرضع وأسرتها من جهة ، والطفل الذى أرضعته وأسرته من جهة أخرى . ولذلك يترتب على الرضاعة تحريم نصت عليه الشريعة الإسلامية وأخذت به أمم كثيرة .

(د) قيود ترجع إلى اختلافات ثقافية . وهى قيود أساسها اختلاف الأديان ، أو اختلاف البيئات ، أو اختلاف الشعوب . ولذلك يفضل كثيرون أن يتزوج الفرد ممن تدين بدينه ، وتكون قد نشأت فى بيئة تشبه بيئته وتنتسب إلى الشعب نفسه الذى ينتسب إليه . ويعرف مثل هذا الزواج بالزواج الداخلى ، أى من داخل جماعته الاجتماعية ، من الأسرة نفسها ، أو القرية نفسها ، أو البلد نفسه ، أو المجتمع نفسه ، أو الدين نفسه ، أو البيئة نفسها . أما الزواج الخارجى فهو أن يتزوج الفرد من خارج جماعته الاجتماعية أى من غير أسرته أو قريته أو بلده أو مجتمعه أو دينه أو بيئته .

الخطبـــة :

الخطبة نظام اجتماعى يمهد للزواج وييسر السبيل إليه ، وتبدأ الخطبة عادة بالبحث عن الفتاة التى تتوافر فيها المطالب التى ينشدها الشاب . وتختلف هذه المطالب باختلاف البيئات والأزمنة ودرجة العلم . ففى المجتمع المصرى يرى

كثيرون أن الفتاة تخطب لمجموعة ميزات منها العفة ، والجمال ، والمهارة فى الخدمة المنزلية ، وصغر السن نسبياً ، ووجود موارد مادية مهما كانت ضئيلة . وقد اختلفت هذه المطالب بين المتعلمين الذين أفادوا من علمهم بحيث تغيرت وجهة نظرهم وطريقة تفكيرهم . فكثير من الشبان المتعلمين يفضلون المتعلمة ذات الشخصية القوية والأخلاق الجيدة والدخل الذى يعينهم فى الإنفاق على البيت والأطفال .

وقد أجريت أبحاث مبتكرة فى بعض الدول الأجنبية كالولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وانجلترا وغيرها للتعرف على صفات الزوج المثالى فى نظر الفتيات ، وصفات الزوجة المثالية فى نظر الشبان . وكانت هذه الصفات فى بحث كبير من الأبحاث التى أجريت فى الولايات المتحدة الأمريكية مرتبة حسب أهميتها كما يلى :

مزايا الزوجة المثالية (من وجهة نظر الشبان)	مزايا الزوج المثالى (من وجهة نظر الفتيات)
١ — الذكاء	١ — الصحة
٢ — حسن المعاشرة	٢ — الخلق القويم
٣ — الصحة	٣ — الاعتدال فى الانفعال والتأثر
٤ — الجمال	٤ — الاستعداد للأبوة
٥ — القدرة على خلق جو منزلى سعيد	٥ — الذكاء
٦ — الخلق القويم	٦ — الشخصية
٧ — التعلم	٧ — حسن المعاشرة
٨ — الاستعداد للأمومة	٨ — الإنفاق عن سعة
٩ — تقدير الظروف والإنصاف والتعاون	٩ — التعاون
١٠ — الشخصية	

الطلاق :

نظام اجتماعى يعترف به المجتمع لإنهاء العلاقات بين الزوجين بعد فشل خطوات التوفيق بينهما . ولا يعد الطلاق من هذه الناحية مشكلة اجتماعية بل يعد حلا لمشكلات كبيرة نشأت بين الزوجين وصعب حلها فجعلت الزوجين يعيشان فى شقاء متزايد يتعذر تخفيف حدته أو تدارك ما ينتج عنه من ضيق وتوتر وارتباك للزوجين والأطفال على السواء . وشرط الطلاق أن يكون مسبوقا بخطوات تتخذ للتوفيق بين الزوجين وتقريب وجهتى النظر بينهما . فإن لم تؤد هذه الخطوات إلى الوفاق وإزالة أسباب الخلاف فإن الطلاق فى هذه الحالة يحسم النزاع وينهى الحياة الزوجية المفككة ويجعل كلا من الزوجين غير مرتبط بالآخر ، أى يصبح حراً يتزوج مرة أخرى من شخص آخر .

وتبلغ نسبة حالات الطلاق إلى حالات الزواج فى مصر حوالى ٢٧٪ أى هناك سبعة وعشرون طلاقا فى كل مائة زواج . وهذه نسبة من غير شك مرتفعة . ولذلك نجد أن من يعنون بدراسة الأسرة ومشكلاتها يتقصون أسباب كثرة الطلاق والعوامل المتداخلة التى تؤدى إليه حتى يمكن تخفيف حدتها وإضعاف آثارها إلى أقصى درجة ممكنة ، إذ لا ينكر أحد ما يترتب على الطلاق من شقاء الأطفال وأمهاتهم فى حالات كثيرة .

وظائف الأسرة :

للأسرة وظائف كثيرة تؤديها فى المجتمع كجماعة اجتماعية مكونة من عدة أفراد ، يؤدى كل منهم دوراً خاصا فيها . فالأسرة كما وضحنا فى الباب الأول تنتج الأطفال وتهيئ لهم الجو الذى تنمو فيه أجسامهم نمواً سليما كما تعمل على نموهم النمو العقلى

بأن تنقل إليهم عناصر تراث المجتمع وتعلمهم الكثير من العلاقات الاجتماعية .
ويمكننا أن نقول إن أهم وظائف الأسرة ما يأتى :

(ا) وظيفة بيولوجية : فالوظيفة الأساسية للأسرة حفظ النوع البشرى بالخلف الذى تنتجه من ذكور وإناث يسهمون فى التكوين الاجتماعى والعمران الإنسانى، ولذلك نسمى الأسرة التى لا تنتج أطفالا أسرة ناقصة لأنها لا تؤدى وظيفتها الأساسية .

(ب) وظيفة اجتماعية : وتشمل وظيفة الأسرة الاجتماعية عدة أمور على جانب كبير من الأهمية ؛ فالأسرة تتعهد الطفل منذ ولادته وتربيه وتنشئه على تراث المجتمع، كما أنها ترعاه وتحفظه من المخاطر وتمنحه الأمان الذى يطمئنه على حياته ويبعد عنه الانزعاج والقلق اللذين يقيدان حركته ويعيقان تفكيره . وليست الأسرة هيئة ترعى الفرد فحسب ، بل إنها تروح عنه بشتى ألوان التسلية المعروفة فى المجتمع ، كما أنها توجهه إلى المهنة التى تراها مناسبة له ، وقد تعلمه إياها . والأسرة إلى جانب ذلك تعرف الفرد بدينه وتشرح له كيفية العبادة من صلاة وصوم وصدقة، وكذلك تفسر له قيمة المواسم والأعياد . وفى الأسرة يخضع الطفل لسلطة والديه ويطيع أوامرهما ويتبع نصحهما ، وعلى هذا الأساس يعتاد الطاعة للكبار سواء أكانوا مدرسين فى مدرسته أم مشرفين عليه فى محل عمله أم حكاما فى منطقته أو دولته . وعلى هذا الأساس أيضاً يتعود الفرد إطاعة القوانين وعدم الخروج عليها . وقد يستمد الفرد من الأسرة التى ينتمى إليها مركزا فى المجتمع تبعا لما تتمتع به هذه الأسرة من جاه أو مركز .

(ح) وظيفة اقتصادية : فالأسرة كانت فى قديم الزمان ، ولا تزال كذلك فى المجتمعات المتأخرة ، هيئة اقتصادية تنتج سلعا مختلفة كما تستهلك بدورها سلعا كثيرة .

وقد جعلها ذلك تكتفى بنفسها إلى حد كبير جدا ، وبذلك استطاعت أن تستقل فى شئونها الاقتصادية عن الأسر الأخرى . فالأسرة فى المجتمعات المتأخرة تغزل الخيوط وتنسج المنسوجات وتصنع الملابس التى يحتاج إليها أفرادها . وهى كذلك تبنى مسكنها وتصنع بعض أثاثه ، كما أنها تقوم بذبح الحيوان وسلخه وتهيئة لحمه للطعام ودبغ جلده أو إعداد فرائه . وهى أيضا تصنع خبزها بعد أن تعالج القمح بالطحن والعجن والخبز .

ولاتزال الأسرة فى المجتمعات الحديثة المتحضرة تؤدى بعض الوظائف الاقتصادية كغسل الملابس وكيها وحياكة بعضها ، وطهو الطعام ، وعمل الفطائر ، وحفظ الفواكه وهلم جرا .

وبينما نجد الأسرة فى المجتمعات الريفية المبسطة منتجة أكثر منها مستهلكة ، نجدها فى المجتمعات الحضرية المعقدة مستهلكة ، أكثر منها منتجة ، وذلك لظهور هيئات اقتصادية فى المجتمع تتخصص كل منها فى انتاج سلعة أو تأدية خدمة كانت الأسرة تقوم بإنتاجها أو تأديتها من قبل . فالمخابز تعد الخبز ، والمغاسل تغسل الملابس ، والمصانع والمشاغل ودور الحياكة تنسج المنسوجات وتصنع الملابس الجاهزة ، والمطاعم تطهو أنواع الطعام ، ومصانع الحلوى تعد أنواعا مختلفة منها .

(د) وظيفة نفسية : إذ تعد الأسرة الهيئة الاجتماعية الوحيدة التى تتكون فيها عواطف من نوع خاص ، لأنها مبنية على علاقات أشد ما تكون متانة وعلى صلات أعظم ما تكون قوة ، كالعلاقات التى توجد بين الوالدين والأطفال من جهة وبين الإخوة والأخوات من جهة أخرى وكذلك بين الزوج والزوجة . ومن أجل هذا كانت الأسرة أول الجموع الأولية وأهمها كما بينا فى الباب الأول . ونحن لا ننكر أن كثيراً من أفراد الأسرة أصبحوا يقضون فيها وقتاً قصيراً بينما يقضون جل وقتهم

فى المقاهى أو الأندية أو محل العمل ، وقد كونوا صداقات وعلاقات قوية خارج نطاق الأسرة ، ولكن هذه الصداقات والعلاقات لا تغنى عن العواطف الأسرية والعلاقات التى تنتج عنها . فليس للحنان الذى يلقاه الفرد من أسرته نظير فى الهيئات الاجتماعية الأخرى التى يتعامل معها الفرد فى مراحل نموه المختلفة . فالحنان وهو أساس العلاقات الأسرية يكسب الأسرة طابعا خاصا يجعل أفرادها يشعرون بالراحة والطمأنينة فى محيطها .

الفصل الثانى

تأثر الأسرة بتغير الحياة الاجتماعية

من الظاهرات التى نلاحظها فى المجتمع أن الحياة الاجتماعية تتغير على مر العصور، وأن تغيرها يؤثر فى النظم الإجتماعية من حيث تركيبها ووظائفها . والأسره من النظم الإجتماعية الشديدة الحساسية للتغير الاجتماعى ، إذ أنها سرعان ما تتأثر تأثراً كبيراً بالغا بتغير الحياة الإجتماعية .

ولكى تعرف إلى أى مدى تتأثر الأسرة بتغير الحياة الاجتماعية يمكنك أن توازن بين الأسرة الريفية والأسرة الحضرية .

الخطبـــة :

يختلف أساس الخطبة فى الريف عنه فى الحضر ، إذ فى الريف تخطب الفتاة أو تختار على أساس مهارتها فى تدبير المنزل وتأدية وظائف اقتصادية كالعجن ، والخبز ، وطهو الطعام ، وحلب الحيوان ، واستخراج الزبد ، وعمل الجبن ، وغير ذلك من المهام التى لا بد أن تؤدى فى محيط الأسرة ، لعدم وجود هيئات أخرى فى المجتمع تؤديها . وتخطب الفتاة فى الحضر غالباً فى سن أكبر من سن الفتاة التى تخطب فى الريف . لأن الشاب فى الحضر لا يستطيع أن يقدم على الزواج إلا بعد أن يكون قد تخصص فى عمل من الأعمال الكثيرة المطلوبة فى المدينة ، ويحتاج ذلك منه إلى سنوات طويلة يستطيع فى نهايتها أن يصل إلى مرحلة من النضج الاقتصادى تمكنه من الزواج وتحمل أعباء خلف الأطفال وكثرة المطالب وارتفاع تكاليف الحياة ، على عكس الحال فى القرية ذات المطالب المحدودة التى لا تتكلف كثيراً . وقلما تخطب

الفتاة فى الحضر على أساس مهارتها فى تأدية وظائف اقتصادية خاصة بالمنزل ، وذلك لوجود هيئات فى المجتمع الحضرى تؤدى خدمات كثيرة للأسرة كإعداد الخبز والجبن والملابس وما إليها .

عقد العقد والزفاف :

و بينما يحتفل فى الريف فى معظم الحالات بعقد العقد على حدة ثم بالزفاف على حدة ، نجد أن الناس كثيراً ما يحتفلون فى الحضر بالمناسبتين إحتفالا واحداً إقتصاداً فى التكاليف والوقت والجهد ، ويساعدهم فى ذلك أن مثل هذه المناسبات لا يدعى إليها إلا المقربون من الأهل والأصدقاء كما يسهل الاعتذار عن الحضور وإرسال تهنئة بالبرق . وفى الحضر ليس مفروضاً أن يقدم المدعو إلى العروسين شيئا كما يمكن الاكتفاء بإرسال باقة من الزهر . أما فى الريف فالأمر على النقيض من ذلك لأن (حفلات) العقد والزفاف ذات أهمية ، إذ يدعى إليها الأقارب والجيران وأقارب الأقارب ولا يقبل الاعتذار إلا فى الظروف القاهرة كما يعد تقديم الهدايا « النقوط » أمراً واجباً . ويعد « النقوط » دينا لا بد من رده فى أول مناسبة .

حجم الأسرة :

وقد ذكرنا فى الباب الأول أن الأسرة الريفية أكبر حجما ، أى أكثر أفراداً ، من الأسرة الحضرية . فالخلف الكثير يتهافت عليه الريفيون أكثر من أهل الحضر . وكلما كانت الأسرة فى الريف كثيرة العدد قويت شوكتها واشتدت عصبيتها لأن للعصبية شأنا كبيراً فى معاملات الريفيين بعضهم لبعض ؛ وتكون الأسرة سنداً للريفيين ضد الاستغلال أو الاعتداء من أى نوع ، وبخاصة إذا كان حفظ الأمن فى الريف غير قوى . أما فى الحضر فليس للعصبية شأن يذكر ، لأن المعتدى عليه يلجأ تواً إلى رجال الشرطة ليوقفوا المعتدى عند حده .

الطفـــــولة :

والطفولة فى الريف ، ذى الحياة المبسطة ، قصيرة نسبيا ؛ إذ سرعان ما يترك الطفل فى سن مبكرة ليعتمد على نفسه فى الغدو والرواح واللعب والعمل . فالأطفال يلعبون فى شوارع القرية دون رقابة من أحد ، ثم يذهبون إلى الحقول وهم لا يزالون أطفالا ؛ ويتعلمون الفلاحة بسرعة دون عناء ويستطيعون الكسب . أما فى الحضر الذى تعقدت فيه الحياة وارتفعت تكاليفها وكثرت فيه الأنظمة والقوانين ، فإن طفولة الفرد تكون طويلة نسبياً ، إذ لا بد من الإشراف عليه فى غدوه ورواحه ولعبه حتى لا يصيبه ضرر . ويعتمد الفرد اعتماداً كبيراً على الأسرة والمدرسة إلى أن يحصل على ما يؤهله للالتحاق بعمل من الأعمال يجعله يكسب قوته ويعيش فى المستوى الذى ينشده .

تربية الأطفـــال :

وهكذا نجد أن الأسرة فى الريف تعلم أفرادها الحرف التى يكسبون قوتهم منها ، بينما فى الحضر تؤدى المدارس والمعاهد والمصانع هذه الوظيفة . ولذلك يمكن أن نقول إن دور العلم والتأهيل فى الحضر قد سلبت من الأسرة وظيفة هامة من وظائفها وهى تعليم الفرد وتأهيله ليكسب قوته . وبينما يلعب الأطفال ويمرحون فى كنف أسرهم فى المجتمع الريفى المبسط القليل المخاطر ؛ نجدهم يحتاجون إلى الملاعب والأندية والمنظمات التى تشغل وقت فراغهم فى الحضر المعقد الكثير الأخطار لكثرة ما به من سيارات مختلفة ومركبات آلية ، كما أن الأفلام التى تعرض عليهم فى دور السينما قد حلت محل القصص التى كانت تقص عليهم فى بيوتهم لتسليتهم . وهكذا يمكن القول بأن الهيئات الترفيهية فى الحضر قد سلبت من الأسرة وظيفة من وظائفها الكثيرة .

نطاق الأسرة :

الأسرة فى الريف متسعة النطاق ، إذ فى الغالب يعيش الزوجان وأطفالهما مع والدى الزوج ، وربما مع إخوته المتزوجين ، وفى هذه الحالة تكون للأب الأكبر سلطة قوية على أبنائه وأحفاده . أما فى الحضر فالأسرة ضيقة النطاق ، إذ يفضل كل زوج أن ينفصل بزوجه وأطفاله عن أهله ويعيش مستقلا بعيداً عن المشكلات التى تنجم عن الاشتراك فى معيشة واحدة مع والديه وإخوته . وما دام قد فعل ذلك فإنه يصبح مستعداً لقبول فكرة انفصال أبنائه عنه عندما يكبرون ويتزوجون . بل إن الوالدين لا يتألمان كثيراً إذا ما اقتضت ظروف أعمال أبنائهما الابتعاد عنهما والإقامة فى بلد أو قطر آخر . أما فى الريف فإن الوالدين فى الغالب لا يطيقان كثيرا بعد الأبناء عنهما ، لأنهما لم يعتادا .

وظيفة الأسرة الاقتصادية :

ذكرنا قبل ذلك أن الأسرة فى الريف هيئة اقتصادية تؤدى وظيفة إنتاجية على جانب كبير من الأهمية ، وأن الأسرة فى الحضر لا تؤدى هذه الوظيفة لوجود هيئات أخرى منتجة تنافسها وتنتج السلع وتؤدى الخدمات بأسعار زهيدة . ولذلك يمكن القول أيضاً بأن الهيئات الاقتصادية المختلفة فى الحياة الاجتماعية المعقدة قد سلبت من الأسرة وظيفة من أهم وظائفها وهى الوظيفة الاقتصادية .

والزوجة فى المجتمع الحضرى المعقد لا تؤدى فى بيتها من الأعمال ما تؤديه زميلتها فى المجتمع الريفى المبسط ولذلك أصبح لديها فراغ كبير من الوقت ، لأن كل مهمة تقريبا فى البيت الحضرى يقوم بها فى جل الحالات أشخاص يتقنونها ، كالغسل ، والكى ، وطهو الطعام ، وحياكة الملابس ، وعمل الخبز ، وتنظيف المسكن ، وتعليم

الأطفال وتربيتهم فى طفولتهم الأولى . وهـذه المهام وغيرها تتطلب أموالا كثيرة ولذلك نجد الزوجة تترك البيت فى حالات كثيرة لتشتغل خارجه فى أعمال تتقاضى عنها مرتباً تستطيع أن تساعد به زوجها فى الحصول على مطالب الأسرة . وهكذا أصبحت الزوجة تعاون زوجها لرفع مستوى معيشتها ، وساعدها على ذلك تعلمها وتخصصها مثل الرجل وحصولها على ما يؤهلها لشغل وظيفة مثل وظيفته .

أثر تعلم المرأة وخروجها إلى ميدان العمل :

ويعد خروج المرأة إلى ميدان العمل ومساواتها بالرجل إلى درجة كبيرة ، أهم ظاهرة اجتماعية نشأت فى المجتمع الحديث المعقد ، لأن تعلم المرأة مثل الرجل واستطاعتها الكسب مثله مكنها من الاستقلال والتخلص من نفوذ الرجل إلى حد كبير ، كما جعلها مساوية للرجل من وجوه عدة . وهذا أمر غريب وغير مألوف فى المجتمع المبسط غير المتقدم الذى كثيراً ما تعد المرأة فيه أدنى شأناً أو مقاماً من الرجل.

والمرأة فى المجتمع الريفى المبسط تساعد زوجها فى الحقل لأنها قد نشأت على هذا الاعتقاد و وجهت هذه الوجهة من صغرها ، فهى ترى أن هذا من واجباتها نحو زوجها . والزوج نفسه ينتظر منها هذا السلوك لأنه قد نشأ على هذا الاعتقاد أيضا .

السلطة فى الأسرة :

إن سلطة الزوج مهيمنة على زوجته وأطفاله فى معظم الحالات فى الريف وفى المجتمعات المبسطة ، أما فى المجتمع الحضرى المعقد فأمر الأسرة شورى بين الزوجين فى أغلب الحالات ، وقد تترك الإدارة للزوج ، عميد الأسرة وراعيها ، فيشرف على أمورها وينسقها بالتعاون مع زوجته وأطفاله .

تقسيم العمل بين الزوجين :

يظهر تقسيم العمل محدداً بشكل واضح بين الزوج والزوجة فى المجتمعات الريفية، أما فى المجتمعات الحضرية فلا يكون التقسيم واضح التحديد .

فللرجل فى الريف أعمال خاصة كفلاحة الأرض ، وحراسة الزرع ، وحصده ، وتسويقه ، وتربية الماشية ، وتدبير الشئون الخارجية للأسرة مع الرجال الآخرين . وللمرأة أعمال خاصة أيضاً كطهو الطعام ، وطحن الحبوب ، وعجنها ، وخبزها ، وغسل الملابس ، وحلب الماشية ، وتربية الأطفال الصغار ، وتدبير المنزل ، ثم أنها كثيراً ما تعاون زوجها فى الحقل كما ذكرنا ،

أما فى الأسرة الحضرية فلا تجد المرأة فى بيتها من العمل إلا القليل . ونجد أن الزوجين يشتركان معا فى كثير من الشؤون كتدبير المنزل ، وتربية الأطفال ، والترفيه ، والحصول على الدخل الذى يدبران به معيشتهما .

النشاط الاجتماعى :

بينما لا يكون للمرأة نشاط اجتماعى يذكر فى المجتمعات الريفية المبسطة ، نجد أن نشاطها الاجتماعى كبير فى المجتمع الحضرى المعقد ، ويتجلى نشاطها فى الجمعيات والمنظمات . ويشجع المرأة على ذلك عدة عوامل أهمها :

(ا) اكتسابها حقوقا كثيرة تكاد تكون مساوية لحقوق الرجل .

(ب) وجود هيئات اجتماعية مختلفة حملت عنها كثيراً من أعباء تدبير منزلها ، فأصبح وقت فراغها طويلا ، وصارت لا تجد فى بيتها ما يشغلها .

(حـ) رغبتها فى أن تفيد وطنها بعلمها وجهدها أسوة بالرجل .

(د) كثرة انشغال الزوج وتغيبه عن زوجته ، وتركها وحيدة فى بيت لا تشغلها فيه إلا مشاغل تافهة .

الرغبة فى النسل :

وقد ترتب على حرية المرأة فى المجتمع الحديث ، وخروجها إلى ميدان العمل ، واشتغالها بالشئون الاجتماعية ، ومشاركتها زوجها فى الاستجمام والترويح عن النفس أن أصبحت لا ترتاح لـكثرة النسل ، بل صارت تفضل تحديد خلفها والإقلال من الحمل والوضع والرضاعة ، لأنها تجد أن هذه الأمور تقيدها من جهة ، وتؤثر فى نضارتها وقوامها تأثيراً لا ترضاه .

وهكذا تجد أن المرأة فى الحياة الاجتماعية الحديثة بالحضر لا تضع خلف الأطفال فى الاعتبار الأول ، بعكس المرأة القروية التى تعد ذلك أهم وظيفة لها وتضحى فى سبيلها بحريتها وصحتها . يضاف إلى ذلك أن المرأة القروية تنظر إلى أطفالها كوسيلة لتأمين مستقبل زواجها وتقييد حرية زوجها فى طلاقها ، إذا كانت فى المجتمعات التى يباح فيها الطلاق بسهولة ، وبخاصة أنها تخشى الطلاق لبساطة تعليمها أو انعدامه وعدم استطاعتها إعالة نفسها والخروج إلى ميدان العمل كالرجل . فهى لم تهيأ لذلك . والمرأة فى المجتمع الحضرى الحديث لا تنظر إلى الأطفال هذه النظرة ، وإنما تعدهم زينة وتسلية وصحبة فى الحياة . فهى آمن بعلمها على مستقبلها ، وتستطيع العيش فى غنى عن زوجها إذا انفصل عنها وتركها .

يتبين لك مما سبق كيف تتأثر الأسرة بتغير الحياة الاجتماعية ومدى هذا التأثر . ويمكنك أن تدرس تأثر أسرتك وأسر جيرانك بتغير الحياة الاجتماعية حين تسأل كبار السن عن أهم خصائص الأسرة فى صباهم ، وتوازن بينها وبين ما هو موجود فى العصر الحاضر . وستجد من غير شك أن أكثر هؤلاء المسنين يسردون عليك الكثير من أخبارهم الماضية ويبدون أسفا شديداً لتبدل الأحوال وتغيرها عما كانت فى أيامهم الأولى وأيام آبائهم وأجدادهم . وإذا قرأت كتاب المويلحى : « حديث عيسى بن هشام » ستجد فيه موازنة ممتعة بين الحياة الاجتماعية فى عصر الكاتب والحياة الاجتماعية قبل ذلك بفترة طويلة من الزمان .

الفصل الثالث

تماسك الأسرة وتفككها

يتبين لك من الفصلين السابقين تكوين الأسرة ، ووظائفها ، وكيفية تأثرها بتغير الحياة الاجتماعية من حياة مبسطة محدودة قليلة المطالب إلى حياة معقدة متشعبة كثيرة المطالب . ولا يحدث هذا التغير فى سنوات قليلة ، بل يحتاج إلى عشرات السنين حتى تتفاعل عوامل التغير الاجتماعى وتحدث آثارها العميقة فى الأسرة . وسواء كانت الأسرة فى مجتمع ريفى مبسط ، أو مجتمع حضرى معقد فإنها تصادف أزمات تهددها بالتفكك ، وقد تفككها بالفعل .

تماسك الأسرة :

يقوم تماسك الأسرة على عدة دعائم أهمها : معيشة الزوجين متآلفين مع بعضهما متعاونين على ظروف الحياة ، يؤدى كل منهما واجبه نحو الآخر ونحو أطفالهما . ولكن هذا التماسك لا يبقى فى أسر كثيرة على حال واحدة ، وإنما تهدده عدة عوامل تؤدى إلى تفكيك الأسرة . فما أهم هذه العوامل ؟

عوامل تفكك الأسرة :

(١) عوامل ترجع إلى الزوجة ويمكن إجمالها فيما يلى :

١ — عقم الزوجة أى عدم استطاعتها الخلف . وهذا عامل على جانب كبير من الأهمية فى المجتمعات الريفية التى تضع خلف الأطفال فى المحل الأول كما سبق أن

أوضحنا . أما فى المجتمعات الحضرية فلا يعد عقم الزوجة كارثة ، بل بالعكس ، قد أصبح فى كثير من الحالات أمراً مرغوبا فيه من أزواج لا يريدون الخلف وتحمل مسئوليات تربية الأطفال .

٢ — إهمال الزوجة فى الأعمال المنزلية . وهـذا عامل هام فى الحياة الاجتماعية المبسطة التى تؤدى فيها الزوجة أعمالا كثيرة ، فإذا قصرت فى أداء هذه الأعمال أو بعضها بدأ زوجها فى تأنيبها ، وقد يستفحل الأمر ويتحول إلى شقاق وفرقة . أما فى الحياة الاجتماعية المعقدة حيث لاتوجد للزوجة مهام ذات بال تؤديها فى بيتها فقلما توجد هذه المشكلة .

٣ — سوء تدبير ميزانية الأسرة . ويتخذ ذلك أشكالا مختلفة منها إنفاق المـال فى أمور غير ضرورية ، أو صرفه فى أمور غير مفيدة ، أو الإسراف فى الإنفاق دون روية وتبصر . فالقروية الساذجة قد تنفق المـال فى شراء الأحجبة وعمل الوصفات البلدية ، بينما تنفقه المتحضرة المسرفة فى شراء ملابس لاحاجة ماسة إليها .

٤ — إهمال الزوجة حقوق زوجها والانشغال عنه بتربية الأطفال . وهذا خطأ تقع فيه زوجات كثيرات . حقا إن الأطفال يحتاجون إلى عناية فائقة من أمهم ، ولـكن حين يكون ذلك على حساب راحة الزوج ينصرف الزوج غالبا عن البيت ويبحث عن الراحة والاهتمام به فى مكان آخر .

٥ — رغبة الزوجة المؤهلة علمياً فى أن تعمل خارج بيتها على الرغم من عدم الاحتياج إلى ما تتقاضاه من مال نظير هـذا العمل ، وعلى الرغم من حاجة البيت والأطفال إلى جهودها . وهذا عامل كثير الحدوث فى المجتمع الحضرى المعقد .

٦ — شطط الزوجة فى مطالبها من زوجها وتحميـله ما لا طاقة له به . كمطالبته

بالسفر فى رحلات تتعارض مع نظام عمله ، أو الإصرار على إقامة حفلات ودعوة أصدقاء وصديقات لا يرتاح لهم الزوج ، وغير ذلك من المطالب المرهقة المنفرة .

٧ — استجابة الزوجة لتوجيهات ضارة من أهلها أو صديقاتها ، وسماحها لهم بالتدخل فى شئونها وشئون زوجها ، الأمر الذى يؤدى إلى الشقاق والفراق فى حالات كثيرة .

٨ — سوء طبع الزوجة الذى يجعلها نكدة مشاكسة ، وعصبيتها التى تجعلها متوترة تثور لأتفه الأسباب ولا تتحمل مواجهة مشكلات الحياة .

(ب) عوامل ترجع إلى الزوج ويمكن إجمالها فيما يلى :

١ — إسراف الزوج وأنانيته فى الإنفاق على نفسه بينما يحرم البيت من بعض الضروريات . فهناك رجال يسرفون فى التدخين ، ولا يبخلون على أنفسهم بالغذاء الجيد فى خارج البيت غير عابئين بزوجاتهم ولا بأطفالهم . وكثيراً ما يؤدى ذلك إلى الإخلال بميزانية الأسرة ومضايقة الزوجة وأطفالها وحرمانهم من كثير من مطالب البيت الملحة .

٢ — إهمال الزوج لزوجته والانشغال عنها وعن الأطفال أيضاً بالخروج إلى المقاهى والأندية والجلوس مع أصدقائه ممن هم على شاكلته . وقد لا يضايق هذا السلوك الزوجة الريفية أو التى نشأت على العادات والتقاليد القديمة ، أما الزوجة المتعلمة الحديثة فى تفكيرها فإنها لا ترضى عنه ، بل تنفر منه وتحاسب زوجها عليه .

٣ — استجابة الزوج لتوجيهات ضارة من أهله أو أصدقائه ، وسماحه لهم بالتدخل فى شئونه ، الأمر الذى يجعله يغير معاملته لزوجته ويضايقها أشد المضايقة .

٤ — سوء طبع الزوج ومشاكسته وعصبيته التى تجعله سيء المعاشرة ، غير هادئ ، يسخط على الحياة بسرعة ولأتفه الأسباب .

٥ — طمع الزوج فى ثروة زوجته أو إغراؤه إياها على الاشتغال خارج البيت والسعى وراء الرزق ، طمعا فيما تتقاضاه من أجر .

٦ — عدم تسامح الزوج مع زوجته ، وتبرمه بمتاعبها من الحمل والوضع وتحمل أعباء البيت وتربية الأطفال .

(حـ) عوامل ترجع إلى الزوجين معا ويمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — الخلاف على تربية الأطفال . فكثيراً ما يكون الزوج شديداً فى معاملته إياهم ، بينما تدللهم الزوجة وتسارع إلى تلبية رغباتهم . ومما يزيد المشكلة تعقيداً ظهور هذا الخلاف بشكل واضح أمام الأطفال .

٢ — الخلاف على النفقة والتصرف فى الدخل . إذ قد يكون أحد الزوجين مسرفا ، بينما يكون الآخر مقترا ، أو يكون أحدهما مدبراً والآخر يميل إلى الفوضى فى الإنفاق .

٣ — الاختلاف فى الثقافة . أى فى العادات والعرف والتقاليد والمعتقدات وأسلوب الحياة التى ربى عليها كل من الزوجين . ويعد هذا الاختلاف أشد العوامل تفككيا للأسرة ، وبخاصة إذا انعدم التسامح وسعة الصدر بين الزوجين .

ويمكن إرجاع هذه العوامل كلها إلى عامل جوهرى شامل ، هو عدم الانسجام بين الزوجين . فالانسجام شرط أساسى للحياة الزوجية السعيدة . لأنه يقرب وجهات

نظر كل من الزوجين ، و يجعلهما يلتقيان عند نقطة وسط ، كما أنه يخفف من حدة بعض العوامل السالفة ، وقد لا يجعل محلا لوجود بعض العوامل الأخرى . ولا ينكر أحد أن من الممكن تلافى الكثير من هذه العوامل لو أحسن كل من الزوجين اختيار الآخر ، ولا يتسنى ذلك إلا بالتروى والتبصر والبحث والتقصى ، حتى تبنى دعائم الأسرة على أسس سليمة مستقرة .

أثر تفكك الأسرة :

إن العوامل التى ذكرناها كثيراً ما تؤدى إلى الشقاق بين الزوجين ، وتنتهى فى الغالب بالطلاق . وهكذا تتفكك الأسرة بعد تماسك ، وتنفصم عرى وحدتها ، و يصبح جوها غير صالح لتربية الأطفال تربية سليمة . و يمكن إجمال آثار تفكك الأسرة فيما يلى :

١ — خيبة أمل كل من الزوجين فى الحياة الزوجية . وكثيراً ما يحدث ذلك صدمة قد تؤدى فى حالات غير قليلة إلى نفور من فكرة الزواج إذا انتهى التفكك بالفرقة.

٢ — إهمال الأطفال نتيجة انشغال والديهم بمشكلتهما ، والصراع الذى ينشب بينهما ، ذلك الصراع الذى يشقى الأطفال و يجعلهم حيارى بين الأب والأم وإلى أيهما ينحازون . ومما يزيد الطين بلة أن أحد الوالدين قد يحرض الأطفال ضد الآخر ، وقد يحدث أيضا أن يقتسما الأطفال فيما بينهما ثم يحرض كل منهما فريقه ضد الفريق الآخر .

٣ — إهمال الأطفال عمدا نتيجة طلاق الزوجين ، وزواج الأب بامرأة تكره أطفاله وتنفره منهم ، و زواج الأم برجل يكره أطفالها و يحرضها ضدهم . وليس بخاف

أن سلوك الوالدين على هذه الصورة كثيراً ما يؤثر فى نفسية الأطفال و يجعلهم ينحرفون عن الطريق السوى .

٤ — تفكك البناء الاجتماعى نتيجة عدم قيام الأسرة بوظائفها فيه على خير وجه . فالأسرة المفككة لا تستطيع أن تربى أطفالها تربية حسنة ، كما أنها تفرط فى وظيفتها النفسية والاجتماعية . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الأسرة المفككة تترك للمجتمع فى حالات كثيرة اطفالا معتلى الشخصية ، تبين لنا علاقة تفكك الأسرة بالتفكك الاجتماعى .

ولما كان نظام الأسرة أهم الأنظمة الاجتماعية كما عرفت ، فإن كثيراً من علماء الاجتماع قد أخذوا يدرسون الأسر من أنواع مختلفة ، دراسة مبنية على أسس علمية سليمة . وقد كشفت هذه الأبحاث عن حقائق كثيرة متعلقة بالخطبة واختيار الزوجة والعوامل المؤدية إلى تماسك الأسرة أو تفككها . وتعد هذه الحقائق أساساً لا بد منه لأى إصلاح يجرى فى محيط الأسرة ، إذ لا يمكن وضع خطط إصلاح لأية ظاهرة اجتماعية ما لم تسبق ذلك أبحاث علمية تميط اللثام عن الحقائق المتعلقة بهذه الظاهرة .

ونحن فى مصر لا نستطيع أن نقترح أى اقتراح لإصلاح الأسرة ما لم تجر أبحاث علمية متنوعة خاصة بمشكلاتها .

(ب) النظام الاقتصادى

الفصل الأول

(أ) تطور حياة الإنسان الاقتصادية

كان على الإنسان البدائى أن يدبر حاجاته بنفسه ، فلجأ إلى التفكير فى وسائل تعينه على الوصول إلى غاياته . لجأ إلى استعمال أدوات مختلفة من الحجر والعظام والخشب فى صيد الحيوان والسمك . ولجأ إلى فكرة جمع النباتات والأعشاب لتكون تحت طلبه وقت حاجته إليها . وكلما تقدم فى صنع الأدوات أصبح صيده للحيوان أيسر . ولقد توصل إلى عمل القوس والسهم لاستخدامهما فى صيد الحيوان البرى ، كما صنع الشباك لصيد السمك . وعمل هذه الأدوات البدائية واستخدمها فى الصيد والقنص كان له أثر فى تنظيم العلاقات الإنسانية بين الأفراد والجماعات .

وقد تعلم الإنسان الزراعة ، ولما انتشرت غيرت من طرق معيشة الناس . فالزراعة حتمت على الإنسان أن يعيش بجانب زرعه ليرعاه إلى أن يحصده أو يجمعه كما أنها قللت من اعتماده على الصيد ، وأمدته ببعض الأعشاب والأخشاب ، وجعلت حياته مستقرة نوعا ما .

وعلى الزراعة أخذ الإنسان يربى بعض الحيوان ويستأنسه . وكان يأخذ اللحم من بعضه ، ويستخدم البعض الآخر فى ركوبه وفى التنقل من مكان إلى مكان .

وبعد أن تعلم الإنسان كيف يحصل على النار ، تعلم طهو الطعام والحصول على الدفء . وعرف كيف يستخدم النار فى بعض الصناعات الأولية مثل عمل الأوانى الفخارية .

ونستطيع أن نقول إن اتصال الإنسان بعناصر الطبيعة مدفوعا برغبته فى إشباع حاجاته ، قد قاده إلى سلوك متنوع للوصول إلى غاياته على مر الزمن . ولما كانت حاجات الإنسان غير محدودة وتأخذ فى الازدياد كلما تقدمت المدنية ، لم يقف به الأمر عند حد كشف مختلف الوسائل ، بل أخذ يتدرج فى ترقية هذه الرسائل لتؤدى غرضها بطريقة أكمل . فبعد أن استخدم الأدوات المصنوعة من الحجارة ، أصبح يستخدم أدوات مصنوعة من المعادن . وانتقل من الزراعة الأولية إلى الزراعة المتعددة المحصولات . ومن الكهوف إلى الأكواخ ثم إلى المنازل فالمبانى الضخمة . وأخذ يمهد الطرق و يعبدها فزاد اتصاله بغيره من الأفراد والجماعات .

وتعقدت الحياة وكثرت مطالبها وأصبح الإنسان عاجزاً عن إشباع كل حاجاته بنفسه ، فضعف استقلاله الاقتصادى الذى بدأ به حياته الأولى فى قديم العصور . وانتهى به الأمر إلى أنه لا ينتج لنفسه فحسب ، بل ينتج للآخرين أيضاً ، و يستهلك ما ينتجه الآخرون . و بعد أن كان يعتمد اعتماداً كليا على نظام المبادلة كوسيلة لتبادل الحاجات ، أى بعد أن كان يعطى جزءاً من محصولاته الزراعية نظير حصوله على بعض ما يصنعه الآخرون ، تطور به الأمر إلى قيام النقد والأسواق المالية . وقد أدى هذا كله إلى نظام تقسيم العمل واقتصار الإنسان على القيام بعمل يتقنه بدلا من أن يعمل أعمالا كثيرة لا يتقنها .

ولما زاد عدد السكان ، ضغطوا على الموارد التى حولهم لإشباع حاجاتهم . ونحن نعلم أن رغبات الإنسان وحاجاته لا تقف عند حد ، فى حين أن الموارد التى يتهافت الناس عليها و يتنازعون من أجلها هى التى لها حدود . ومن هنا نشأت المشكلات الاقتصادية . إذ أن معظم هـذه المشكلات تنشأ عادة إذا تعددت الحاجات والرغبات وكانت الموارد غير ميسورة ، أو كانت لا تكفى لإشباع هـذه الحاجات والرغبات بشكل مرضى . إذن أصبح على الأفراد أن يسعوا سعياً متواصلا ، وأن يفكروا فى

كيفية التغلب على مثل هذه المواقف حتى يمكنهم تحقيق ما يرغبون فيه ، أو ما يحتاجون إليه . وهذا السعى وذلك التفكير هما موضوع الدراسة فى علم الاقتصاد .

إذن ، كان على الإنسان أن يفكر تفكيراً اقتصاديا فى كيفية التوفيق بين حاجاته وموارده فى الظروف المختلفة . ويفاضل بين حاجة لها أهمية وبين حاجة أخرى تقل عنها أهمية بالنسبه لظروف معيشته . فالموظف الذى يتقاضى مرتبا شهريا محدوداً ، يلزمه مسكن له ولأسرته وطعام وكساء وغير ذلك من الحاجات اللازمة لحياة هذه الأسرة . فهو إذن فى موقف يحتم عليه التفكير فى وضع نظام خاص يمكنه من إشباع هذه الحاجات أو بعضها فى حدود مرتبه الشهرى . فنراه يرتب حاجاته حسب درجة إلحاحها وضرورتها ، ويوزع صرف مرتبه حسب إشباع هذه الحاجات ، أو يؤجل بعضها ويشبع البعض الآخر بحيث يضمن توازن حياة الأسرة ويبعدها عن الاضطراب . فإذا أخفق مراعاة مثل هذا النظام تعرضت الأسرة للاضطراب . أما إذا زاد المرتب بحيث يتبقى جزء منه بعد إشباع حاجات الأسرة ، فإن هذا الموظف قد يبحث عن حاجات جديدة ينفق فيها هذا الفائض ، أو يوفره لما عسى أن يظهر من حاجات فى المستقبل يخشى ألا يجد المال الكافى لإشباعها . ومعنى هذا أنه لا بد من اتباع نظام اقتصادى يرى فيه الإنسان ضماناً لتحقيق حاجاته . والدولة كالأفراد ، لا بد لها أيضاً من اتباع نظم اقتصادية تحقق بها غاياتها كدولة مسئولة عن رعاية أفرادها ورفاهتهم .

(ب) ملخص تاريخ النظم الاقتصادية

مارس الإنسان فى مراحل حياته نظما اقتصادية مختلفة كانت تفرضها عليه ظروف الحياة التى يحياها ، فبدأ بنوع من النظام الاقتصادى يعرف باسم « اقتصاد الأسرة » . وكان النشاط الاقتصادى فيه لا يخرج عن حدود الأسرة أى أن الرجل وزوجته وأولاده يشبعون حاجاتهم بأنفسهم دون أن يحتاجوا فى ذلك إلى الأسر الأخرى .

ومعنى ذلك أنهم كانوا مستقلين فى اقتصادياتهم وساعدهم على ذلك أن الحياة كانت غير معقدة ، وكانت حاجات الإنسان محدودة لا تستدعى الاعتماد على الغير .

فلم يكن هناك نظام للتجارة أو المبادلة بسبب استقلال كل أسرة عن باقى الأسر الأخرى . ولكن لما اتسعت الأسرة ، وازداد عدد أفرادها ، وتعددت فروعها للتزاوج والنسل ، وتكونت القبائل وانتشرت وكونت القرى ، اضطرتهم ظروف المعيشة إلى تقسيم العمل فيما بينهم والتخصص فيه . وهكذا اتسع النشاط الاقتصادى ، فخرج من النظام الأسرى المحدود النطاق ، وأصبحت التجارة بين القرى ، ثم بين القرى والمدن ، و بين المدن بعضها و بعض .

ولما تكونت الدول بشكلها الحديث ، اتخذ النظام الاقتصادى فى كل دولة طابعا خاصا . فلكل دولة نظمها فى التجارة ، والزراعة ، وتوزيع الأراضى ، والثروة ، والحماية الجمركية ، وكافة المشروعات الاقتصادية الأخرى .

ومع مرور الزمن وزيادة تنوع الحاجات ، ابتدأت الدول فى الاتصال الاقتصادى بعضها ببعض ، وتشابكت بذلك مصالحها التجارية والصناعية ، وخرج النظام الاقصادى بذلك من حيز الدولة إلى الحيز العالمى . وساعد على ذلك تحسن وسائل المواصلات البحرية والبرية والجوية نتيجة الكشوف العلمية والمخترعات ، فأصبحت كل دولة تعتمد على غيرها من الدول فى كثير مما تحتاج إليه من منتجات أو مواد خام .

وقد اتبعت فى هذه النظم الاقتصادية مذاهب مختلفة نادى بها كثير من المفكرين والمصلحين ، وكان بعضهم ينقض من سبقه . وهكذا أصبحت الآراء والمذاهب الاقتصادية تتجدد وتتغير ، شأنها فى ذلك شأن ما يحدث فى جميع الميادين العالمية الأخرى . ومن أهم المذاهب التى ظهرت فى الميدان الاقتصادى مذهب الحرية الفردية ، ومذهب تدخل الدولة .

الفصل الثانى

١
مذهب الحرية الفردية المطلقة

يرى أنصار هذا المذهب أن هناك قوانين طبيعية تسير بمقتضاها العلاقات بين الناس مثل القوانين التى تسير بمقتضاها الظاهرات الطبيعية فى ميادين علوم الطبيعة والكيمياء . فالتاجر الجشع الذى يطمع فى أرباح كثيرة لا يقبل عليه الناس ولا تتحقق أرباحه الجشعة . فى حين أن التاجر الأمين الذى يبيع بضاعته بأثمان معتدلة ، ولا يسعى وراء الربح الباهظ ، يقبل عليه الناس لشراء ما يحتاجون إليه . فعدم إقبال الناس على الأول وإقبالهم على الثانى أمران يحدثان بقانون طبيعى يتحكم فى علاقات الناس بعضهم ببعض .

ويرى أنصار هذا المذهب أنه يجب أن يترك هذا القانون يقوم بعمله دون أى تدخل ، ويرون أن التدخل من جانب الدولة ينتهى بانحراف الشىء عن سيره الطبيعى . وزادوا على ذلك قولهم إن كل ما تعانيه المجتمعات الإنسانية من شقاء ومشكلات اجتماعية ، ينشأ عن خروج الإنسان على القوانين التى فرضتها الطبيعة ؛ إذ أن أحسن الأوضاع وأجملها ما كان طبيعياً أو أقرب إلى الطبيعى .

ولكى يبرهن أصحاب هذا المذهب على صدق آرائهم ، طبقوها فى الميدان الاقتصادى . فرأوا أن هناك قانونا طبيعياً يحدد العلاقة بين الأشياء المعروضة فى السوق وأسعارها دون أن يتدخل الإنسان فى تلك العلاقة . فإذا كان سكان مدينة ما فى حاجة شديدة إلى نوع معين من المنسوجات القطنية ، وكانت كمية هذه المنسوجات محدودة ، نظراً لقلة المصانع التى تنتجها ، فإن ثمنها يرتفع ، لأن عدد الراغبين فيها كبير ، ولأن كميتها محدودة . وإذا تنبه بعض أصحاب رءوس الأموال إلى ذلك ،

وأنشأوا كثيراً من المصانع لنسج القطن ، بقصد الحصول على الربح الوفير ، فإن كمية المنسوجات تزداد حتى تصبح أكثر مما هو مطلوب ، وتكون النتيجة أن تنخفض أسعارها عما كانت عليه أولا .

فهذا القانون الطبيعى ، فى رأى أنصار مذهب الحرية ، يعمل من تلقاء نفسه على تحديد أسعار السلع المعروضة فى الأسواق حسب رغبة الناس فيها . فهو فى رأيهم يعمل على إيجاد نوع من التوازن الاقتصادى دون تدخل من أولى الأمر كما يحمى ، من تلقاء نفسه ، أفراد الشعب من وجود أسعار مرتفعة .

ويهتم هذا المذهب بالحرية الفردية ، أى بإعطاء الفرد الحرية المطلقة لإظهار مواهبه وقدراته ، واستغلالها كما يحلو له فى أى مشروع اقتصادى بشرط ألا يضر أحداً .

أما دور الدولة فى نظرهم فينحصر فى تشجيع الفرد على تحقيق أهدافه الكسبية إلى أقصى حد ممكن . وحجتهم فى ذلك أن نشاط الفرد فى الميدان الإقتصادى يعود عليه وعلى المجتمع كله بالخير الكثير ، ولذلك ينصحون بعدم تقييد النشاط الفردى بأى قيد . ويعد هذا المذهب الدعامة الأساسية التى يرتكز عليها النظام الرأسمالى .

الفصل الثالث

النظام الرأسمالى

يعرف النظام الرأسمالى بأنه النظام الذى يسمح فيه للأفراد بامتلاك أدوات الإنتاج ملكية خاصة . وبازدياد هذه الملكية وتركزها فى يد فئة من الناس ، يصبح فى إمكانهم أن يعيشوا بدون عمل إذا أرادوا ذلك ، وإنما يستثمرون رءوس أموالهم فى المشروعات الإقتصادية المختلفة .

ويتجلى النظام الرأسمالى واضحاً فى عصر الآلات إذ أعطيت فيه السيادة المطلقة لرأس المال ، وتحكم أصحاب رءوس الأموال فى تحديد دخل العمال الذين يشتغلون فى مصانعهم .

كيف نشأت الرأسمالية ؟

عرفت كيف كان يعيش الرجل البدائى وسط أسرته وفقاً لمبدأ الاكتفاء الذاتى . فكان ما يصيده أى فرد فى هذه الأسرة من الحيوان أو يجمعه من الغذاء يشترك فيه أفراد الأسرة جميعاً . وعرفت كيف أن الإنسان ابتدأ يشعر بضرورة الاعتماد على غيره فى إشباع حاجاته ، حين تعقدت الحياة وظهر تقسيم العمل ، فكان على كل فرد أن يتقن حرفة لينتج ما يمكن أن يستفيد منه ويفيد به غيره . وأصبح صاحب الأرض مثلا يستطيع أن يحصل منها على ما يكفيه ثم يعطى غيره ما يفيض عن حاجته نظير سلعة أخرى يكون هو فى حاجة إليها . وكلما تقدمت المدنية وتحسنت أدوات الإنتاج وارتقت ، زادت قدرة الإنسان على إنتاج أكثر مما يحتاج إليه نسبياً .

ويترتب على ذلك أن تزداد ثروة البعض على مر الزمن ، أى تظهر فئة أصحاب رءوس الأموال . وقد استطاع الأثرياء أن يضموا إليهم أفراداً آخرين يعملون عندهم كأجراء ، فازداد الإنتاج ونمت الثروة تبعاً لذلك . وخلاصة كل هذا أن الثروة تنتج ثروة وتنمو نمواً مطرداً فى أمد قصير .

وأهم ما يساعد النظام الرأسمالى على النمو والازدهار ، هو الحرية الاقتصادية . ففى ظل هذه الحرية يتمكن الفرد من جمع ما يستطيع جمعه من الثروات وأدوات الإنتاج ، فيزداد رأس المال ويتضخم .

مزايا الرأسمالية

إن القيام بالمشروعات الصناعية والتجارية الكبرى يعتمد اعتماداً تاماً على الرأسمالية ؛ نظراً لما تحتاج إليه هذه المشروعات من رءوس الأموال الضخمة التى يعجز عن تدبيرها فرد بمفرده ، فالرأسمالية فى الحقيقة هى دعامة المشروعات الكبرى . ولم تتقدم الدول الصناعية إلا على أساس النظام الرأسمالى .

ويعنى الرأسماليون بأن يعرفوا ما يحتاج إليه الأفراد من السلع . وبعد ذلك يتسابقون فى صنعها على نطاق واسع ، وفى نشرها فى الأسواق المحلية والخارجية بوفرة عظيمة ، بقصد تجميع الأرباح وتكديسها . وهم بذلك يستفيدون ويفيدون .

والرأسماليون وإن كانوا يبغون تجميع هذه الأرباح ، فإنهم فى نفس الوقت ينتجون ما يحتاج إليه الناس من السلع الضرورية والكمالية . ومن هذا التسابق الاقتصادى تزدهر الصناعة ، ويزيد التبادل التجارى وتستخدم المواصلات على نطاق أوسع ، وتنشط أعمال البنوك ، ويرتفع مستوى المعيشة بوجه عام .

ولا بد للمشروعات الاقتصادية المختلفة من استخدام الأيدى العاملة ، فيقل التعطل إذا نظمت هذه المشروعات بتشريعات خاصة تحمى العمال والمستهلكين .

والرأسمالية من جهة أخرى ، تقوم على أساس الحرية الفردية ، فيتسابق الأفراد فى إظهار كفاءاتهم ومواهبهم ، ويترتب على ذلك تقدم الدولة بوجه عام فى النواحى الاقتصادية . والواقع أن الدول الكبرى قامت على نبوغ الأفراد ونشاطهم .

ويمكن تلخيص مزايا الرأسمالية فيما يلى :

(أولا) انتشار المشروعات الاقتصادية الكبرى من صناعية وتجارية وزراعية .

(ثانياً) إتاحة الفرصة لإنتاج ما يحتاج إليه الناس من السلع بوفرة ، وبأثمان رخيصة .

(ثالثاً) رفع مستوى معيشة الأفراد .

(رابعاً) استيعاب عدد كبير من الأيدى العاملة فى المشروعات الكبرى .

(خامساً) تقدم الدولة فى الميدان الاقتصادى وبخاصة في الصناعة بأنواعها .

(سادساً) تشجيع كفاءات الأفراد ومواهبهم ، فتتقدم الدولة اقتصاديا .

(سابعاً) تشجيع الطموح عند الأفراد والمنافسة فى الإنتاج والتقدم الاقتصادى .

ولكن الرأسمالية يجب أن تكون معتدلة غير متطرفة ؛ لأن الرأسمالية المتطرفة تكون ذات مساوئ كبيرة يمكن أن نلخصها فيما يلى :

مساوىء النظام الرأسمالى المتطرف

١ — انتشار البطالة وانخفاض الأجور :

إن الرأسمالية إذا تضخمت واتسع نطاقها فإنها كثيراً ما تقضى على الصناعات اليدوية والمشروعات الصغيرة . فالمستهلك يفضل المنتجات التى تصنع بالآلات على تلك التى تصنع باليد ، لوفرتها ورخص ثمنها ، فيضطر أصحاب الصناعات الصغيرة إلى ترك مصانعهم والعمل كأجراء فى المصانع الكبيرة ، وبذلك يساعدون على زيادة الإنتاج وتكدس الأموال والأرباح فى أيدى أصحاب المصانع .

وكلما تكدست أموال أصحاب المصانع توسعوا فى مصانعهم وعملوا على القضاء على الحرف والصناعات الصغيرة . وفى هذه الحالة يضطر أصحاب هذه الحرف والصناعات الصغيرة إلى البحث عن أعمال يرتزقون منها فيلتحقون بالمصانع والمشروعات الكبيرة ، وكثيراً ما يفشلون فى الالتحاق بهذه المصانع والمشروعات فيصبحون متعطلين . ويرجع فشلهم فى الالتحاق بهذه المصانع والمشروعات إلى أن الآلات الكبيرة تكتفى بعدد محدود من الأيدى العاملة (وهو عدد قليل نسبيا) .

ووجود عدد متزايد من المتعطلين شجع أصحاب رءوس الأموال على تشغيل بعضهم بأجور قليلة . وكان المتعطلون أنفسهم مجبرين على قبول ما يعطى لهم من أجور مدفوعين إلى ذلك بالخوف من خطر الجوع والحرمان .

٢ — انخفاض مستوى المعيشة بين العمال :

قد يترتب على الرأسمالية المطلقة ، كما رأينا ، انخفاض أجور العمال وتعطلهم فينخفض مستوى المعيشة بينهم . ومما لا شك فيه أن هذا الانخفاض له أسوأ الأثر على حياة العمال وأسرهم ، ولعل أخطر هذه الآثار انتشار الفقر والمرض والإجرام .

وهكذا ترى أن العمال يعانون متاعب كثيرة فى ظل النظام الرأسمالى المطلق . وتاريخ التقدم الصناعى فى الدول الأوروبية فى القرن التاسع عشر حافل بما تحمله العمال من آلام وظلم ، وما استهدفوا له من استغلال فى ظل الرأسمالية المطلقة .

٣ — إيجاد الفوارق بين الطبقات :

بيّنا أن فى النظام الرأسمالى المتطرف توجد فئة قليلة من الأثرياء الذين يستثمرون رءوس أموالهم فى المصانع والمشروعات الكبيرة والأراضى الزراعية ، فتتاح أمامهم فرصة السيطرة على السواد الأعظم من الأفراد العاملين واستغلالهم ، ومن هذا ينقسم المجتمع إلى طبقتين ظاهرتين ، تتعارض مصلحة إحداها مع مصلحة الأخرى ، فالطبقة الأولى هى طبقة الأثرياء والملاك ، والطبقة الأخرى هى الطبقة العاملة . ومن البديهى أن تكون الأولى قوية لوجود الثروة وعوامل الإنتاج فى أيديها ، بينما تعانى الأخرى كثيراً من الحرمان .

٤ — تأخر القرية على حساب تقدم المدينة :

لم تظهر الصناعات الحديثة والمشروعات الكبيرة إلا بعد أن انتشرت الرأسمالية . وقد عرفت أن رأس المال الكبير هو العامل الرئيسى فى استعمال الآلات على نطاق واسع وتنفيذ المشروعات الكبيرة . ولما كانت هذه المشروعات تتركز فى المدن عادة ، فإنها تحدث تقدما سريعا فيها لما يترتب على وجودها من نشاط فى الحياة العامة . وبهذا تسبق المدينة القرية ، وتتسع الهوة بينهما . فبينما نرى أن المدينة تزداد رقيا وتقدما يوما بعد يوم نجد أن القرية فى أغلب الحالات باقية على حالها ، جامدة فى تقاليدها وعاداتها .

٥ — المساوئ السياسية :

يسمح النظام الرأسمالى المتطرف بتركيز الثروة فى أيدى فئة قليلة من الناس فتصبح لها قوة تتحكم بها فى جمهور كبير من أفراد الشعب . فمثلا يصبح لأصحاب الملكية الكبيرة نفوذ كبير على الأجراء من الفلاحين الذين لايملكون شيئا .

ولما كان النظام البرلمانى يتطلب من العضو المرشح له أن ينال أغلبية الأصوات فإن الإقطاعيين الزراعيين أصحاب الملكيات الكبيرة من السهل أن يحصلوا على أصوات أجرائهم من الفلاحين ، فيفوزوا بعضوية البرلمان . وينتج عن ذلك أن تكون الأغلبية فى البرلمان للرأسمالية من كبار الملاك .

وكثيراً ما تعثرت فى هذه البرلمانات مشروعات المصلحين التى تهدف إلى رفاهة الشعب ؛ لأن كبار الملاك رأوا فيها مساساً بمصالحهم الخاصة .

٦ — الاحتكار :

تكون المنافسة الحرة غير متكافئة بين الرأسمالية من جهة وأصحاب الحرف والمشروعات الصغيرة من جهة أخرى ؛ وذلك لعدم تناسب المقدرة المالية بين الفئتين . فبينما نجد أن الفئة الأولى يمكنها الاستفادة مما كشفت عنه العلوم والأفكار الحديثة من تحسينات ومخترعات فى ميادين الإنتاج ، فإن الآخرين لا يمكنهم ذلك لقلة استطاعتهم المالية . ومعنى هذا أن تكون السيطرة لسلع الرأسمالية . ولكن الخطورة فى أن السيطرة على الأسواق لا تقف عند هذا الحد ، فقد يتجمع بعض الرأسماليين على شكل اتحادات ترمى إلى حماية مصالحهم الاستغلالية والسيطرة على الأسواق . وترفع هذه الاتحادات أسعار المنتجات كما تشاء لعدم وجود منافسين .

الفصل الرابع

(ا) مذهب تدخل الدولة

عرفنا فيما سبق أن مذهب الحرية الفردية يقوم على وجوب ترك الأفراد أحراراً فيما يعملون ، ومنحهم كل الفرص لإظهار مواهبهم وقدراتهم . ويقول أنصار هذا المذهب إنه لاخوف على المجتمع من تلك الحرية لأن هناك قوانين طبيعية تتحكم فى علاقات الناس بعضهم مع بعض ، وأن هذه القوانين تعمل من نفسها على خلق التوازن فى الميدان الاقتصادى . غير أن النتائج الحسنة التى تنبأ بها أنصار هذا المذهب لم تتحقق ، بل إن انتشار هذا المذهب فى شكله المتطرف ترتب عليه كثير من المساوىء التى عانى منها الناس .

من أجل هذا نشأت فكرة أخرى تدعو إلى وجوب تدخل الدولة لحماية الشعب بتنظيم العلاقات الاقتصادية ، والقضاء على المساوىء التى نشأت عن المغالاة فى الأخذ بمذهب الحرية الفردية .

وقد غالى بعض هؤلاء المفكرين فى مذهبهم ، ورأوا أنه يجب على الدولة أن تهيمن على النشاط الاقتصادى إلى أبعد حد ممكن بتقييده بشتى القيود ، متخذة فى ذلك أعنف الإجراءات . وحجتهم هى حماية مصالح الناس كافة . ويعد هذا المذهب الدعامة الأساسية التى يرتكز عليها النظام الاشتراكى المتطرف .

(ب) النظام الاشتراكى المتطرف

هذا هو مذهب متطرف يتناقض مع مذهب الحرية كما بيناه . فبينما يدعو هذا المذهب إلى وجوب تدخل الدولة فى شؤون الشعب إلى أبعد الحدود ، نجد أن مذهب الحرية يدعو إلى منح الحرية للأفراد إلى أبعد الحدود أيضا . والاشتراكيون يرون أن النظام الرأسمالى نظام سيء ؛ إذ فى ظله قد أمكن لفئة قليلة من الأفراد أن تستغل الأغلبية الساحقة . وأن هذه الأغلبيــة تضطر إلى العمل والــكد لصالح هذه الأقلية . فالاشتراكيون يرون وجوب تدخل الدولة بمـا لها من سلطة كى تسيطر تماما على جميع الشؤون الاقتصادية .

فلابد للدولة من أن تسيطر على جميع عمليات الإنتاج والتوزيع والاستهلاك دون أن تترك للمجهودات الفردية أى أثر . كذلك يرون أن تلغى الملــكيات الفردية حتى تتحقق العدالة والمساواة بين جميع الأفراد ، إذ أن الملــكيات الفردية فى نظرهم وسيلة تــكديس الأموال والأرباح فى أيدى الأقلية .

ولــكن هذا المذهب متطرف فيما يدعو إليه . إنه ينــكر ما للفرد من مواهب وقدرات ، فيحرمه من النشاط الحر الذى يستغل فيه مواهبه وقدراته . وما ارتقت الشعوب ولاتقدمت إلاعلى أكتاف الأفراد وما بذلوه من نشاط حر . هذا من جهة، ثم من جهـــة أخرى إن همة الفرد تفتر ويقل نشاطه إذا لم يجد الفرد ما يشجعه على العمل ، وإذا لم ينل تقديراً لمـا يبذله من جهد ، فيؤثر ذلك فى المجتمع تأثيراً سيئا .

(حـ) النظام الرأسمالى الاشتراكى

فتدخل الدولة فى كل الشؤون الإقتصادية ، وعدم ترك الحرية للأفراد للتصرف فى شؤونهم ، فى حدود معقولة لا تضر بالآخرين ، هو مذهب متطرف . لذلك نشأ نظام آخر يسمح للأفراد بهذه الحرية ويهيئ لهم الفرص لإظهار مواهبهم وقدراتهم ، واستغلالها فى وجوه النشاط الإقتصادى المختلفة ، ويسمح فى الوقت نفسه للدولة بالتدخل للاشراف على هذا النشاط وتنظيمه تنظيما يحقق العدالة بين الأفراد ، وتوجيه المشروعات الاقتصادية وفق سياسة محكمة التنسيق .

ويعرف هذا النظام الوسط بالنظام الرأسمالى الإشتراكى . وهو مزيج يجمع بين مميزات كل من النظامين الرأسمالى والاشتراكى .

وهو يأخذ من النظام الرأسمالى :

١ — إحترام الملكية الفردية ، بأن يسمح للأفراد بامتلاك ما يحلو لهم من الملكيات الخاصة ، ولا تقف الدولة أمامهم إلا فى حالة قيود خاصة .

٢ — تشجيع استثمار رأس المال ، فتعطى للرأسماليين امتيازات خاصة من شأنها أن تشجع أصحاب رءوس الأموال على استثمار أموالهم فى المشروعات وميادين الأعمال.

٣ — تهيئة الفرص للأفراد لإظهار مواهبهم وقدراتهم .

وهو يأخذ من النظام الاشتراكى:

١ — تدخل الدولة وإشرافها على النشاط الاقتصادى .

٢ — تنظيم النشاط الاقتصادى وفق سياسة منسقة .

٣ — فرض مختلف الضرائب التصاعدية ، و بخاصة ضريبة الأرباح الإستثنائية.

٤ — حماية العمال من استغلال أصحاب الأعمال وذلك بإصدار التشريعات التى تحدد العلاقات بين الفئتين .

٥ — حماية المستهلكين من جشع الرأسماليين ، وذلك بتحديد الأسعار ، ومنع الغش والاحتكار ، والقضاء على التلاعب فى الأسواق بطرق مثل خزن السلع وحبسها عن التداول بقصد رفع أسعارها .

٦ — تأميم بعض المرافق ذات المنافع العامة كالسكك الحديدية والتليفونات والتلغرافات والإذاعة وعمليات الإنارة والمياه .

٧ — تحديد الملكية الزراعية .

الفصل الخامس

الاتجاهات الاقتصادية الحديثة فى مصر

تأثرت الحالة الاقتصادية فى مصر بقيام الحر بين العالميتين الأخيرتين ، كما تأثرت بالتقلبات السياسية ، وعناية كثير من المسئولين بإشباع حاجاتهم الشخصية أكثر من الاهتمام بشئون البلاد .

وقد برزت فى العهد الحاضر اتجاهات يمكن تلخيصها فيما يلى :

(أولا) الأخذ بمبدأ التخطيط الاقتصادى :

ويقصد بذلك رسم سياسة اقتصادية مدروسة دراسة علمية ، ترمى إلى أهداف بعيدة المدى . وتتلخص هذه الأهداف فى زيادة الإنتاج القومى ، ورفع مستوى معيشة المواطنين .

ومن بين السبل التى اتخذتها الدولة لتحقيق ذلك إنشاء المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومى فى سنة ١٩٥٢ . ومن أهم أغراضه بحث المشروعات الاقتصادية التى يكون من شأنها استغلال موارد البلاد على اختلاف أنواعها ، وتنمية الاقتصاد القومى فى النواحى الزراعية والصناعية والتجارية سواء منها ما تقدمت به الوزارة والمصالح والإدارات الحكومية ، أو ما عرضته المؤسسات والهيئات غير الحكومية ، أو ما أسفرت عنه الدراسات والبحوث التى قام بها المجلس بلجانه الأصلية والفرعية . كل هذا من شأنه أن يبعد المشروعات عن الارتجال والتعارض فيما بينها ، ويجعلنا نتفادى الإسراف فى الانفاق ، ويمكننا من توفير الجهود والوقت والمال[1]

(١) عن نشرة المجلس الدائم لتنمية الإنتاج القومى .

وكان من أهم ما أقره المجلس مشروعات توسيع الرقعة الزراعية باستصلاح الأراضى البور، ومشروعات السد العالى، وخزان أسوان ومديرية التحرير وغيرها .

(ثانياً) التنسيق بين الخدمات الاجتماعية والتنمية الاقتصادية :

فمن المسلم به اليوم أن الخدمات الاجتماعية إن هى إلا « وسيلة لتحقيق أهداف التنمية الاقتصادية باعتبارها مؤدية إلى زيادة الثروة البشرية المتمثلة فى سواعد المواطنين من عمال وفلاحين وغيرهم ، وفى عقولهم المليئة بالخبرة ، وفى نفوسهم المتوثبة إلى الإصلاح والخير . فالترابط قوى بين التنمية الاقتصادية والخدمات الاجتماعية ، وعدم التنسيق بينهما ضار بكليهما معاً »[١] .

وقد أنشأت الدولة المجلس الدائم للخدمات العامة فى نوفمبر سنة ١٩٥٣ لينسق الخدمات التى تؤديها الدولة للشعب مع تلك التى تؤديها الهيئات الأهلية وليشرف على « النهوض الاجتماعى فى اتجاهاته المختلفة ، ويربط بينها وبين برامج التنمية الاقتصادية » .

(ثالثاً) تخفيف التفاوت بين الطبقات :

إن التفاوت الكبير بين طبقات الشعب له آثاره السيئة فى النواحى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها من النواحى . ووجود مثل هذا التفاوت الكبير فى أى بلد هو فى حد ذاته دليل على عدم التوازن الاقتصادى فى هذا البلد .

لذلك كان العمل على تخفيف هذا التفاوت من أهم الاتجاهات الاقتصادية الحديثة فى مصر . وقد ظهر هذا الاتجاه فى قانون الإصلاح الزراعى إذ نص هذا القانون

---

(١) أنظر « الدولة فى خدمة الشعب » . المجلس الدائم للخدمة العامة صفحة ٦ .

على ألا تزيد ملكية الفرد من الأراضى الزراعية على ٢٠٠ فدان ، أما الزيادة فى هذه الملكيات فقد أخذت الدولة فى توزيعها على المعدمين من الفلاحين . وقد حددت العلاقة بين المالك والمستأجر بأن أصبح إيجار الفدان لا يزيد على نسبة معينة من الضريبة ، ويستمر الإيجار ثلاث سنوات على الأقل ؛ وذلك كى لا يتحكم المالك فى المستأجر .

(رابعاً) السرعة فى التصنيع :

إن الإنتاج الصناعى والتوسع فيه يعملان على تنمية ثروة البلاد بدرجة أسرع بكثير مما يعمله الإنتاج الزراعى . والدول الصناعية عادة تكون لها السيطرة الاقتصادية على الدول الزراعيــة . وقد عاشت مصر على الزراعة دهوراً طويلة ، ولم تتسع فى الصناعة إلى الدرجة التى توازن بها اقتصادياتها . ولكن قد ظهر اتجاه حديث فى مصر يرمى إلى السير فى التصنيع بسرعة واضحة .

ولعل من أهم المشروعات التى تهدف إلى ذلك مشروع توليد الكهرباء من خزان أسوان ، وسوف يكون له أثر كبير فى الانقلاب الصناعى فى البلاد .

(خامساً) توسيع الرقعة الزراعية وتعمير الصحارى :

إن الأراضى المزروعة فى مصر صغيرة المساحة إذا قيست بالمساحة الكلية للجمهورية . وقد أجريت أبحاث أظهرت أنه يمكن استصلاح كثير من الأراضى القابلة للزراعة ، ويمكن زراعة أجزاء كثيرة من الصحارى . وأهم مشروع فى هذا الشأن هو مشروع مديرية التحرير فى وسط الصحراء ؛ إذ زرعت مساحات واسعة فى الصحراء غرب الدلتا .

وقد تنشأ مديريات أخرى على غرار هذه المديرية فتعمر الصحراء ، وينتعش الإنتاج والاقتصاد القومى عامة .

هذا ولا ننسى أن مصر الحديثة فيها اتجاهات اقتصادية هامة منها :

(١) تحديد العلاقة بين العامل وصاحب العمل :

فالعامل فيما مضى كان فريسة سهلة فى أيدى أصحاب الأعمال ، لا يقيمون له وزنا ولا يعطونه كامل حقوقه ، فظهرت تشريعات كثيرة ترمى إلى حماية العامل وحفظ حقوقه وتحديد علاقته بصاحب العمل حتى لا يستغله . كما نصت هذه التشريعات على حقوق العامل عند الخروج من العمل أو فى حالة المرض وحددت التأمينات ضد المرض والشيخوخة .

(٢) الجمع بين مزايا كل من الرأسمالية والاشتراكية :

فالنظام الرأسمالى الاشتراكى كما عرفنا ، يقف بين النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى ، إذ هو يجمع بين مميزات كل منها . والمزج بين هذه الميزات فى حد ذاته اتجاه حديث اتبعته دول كثيرة منها مصر .

فمصر الآن تشجع قيام الرأسمالية واستثمار رءوس الأموال فى الصناعات والتجارة ، ولكنها لم تترك الحبل على الغارب بل أخذت من الاشتراكية فكرة التدخل فى ذلك ، ووضعت تشريعات وقوانين من شأنها حفظ التوازن وحماية الشعب من طغيان الرأسمالية . ولقد وضعت مثلا قوانين الضرائب التصاعدية والأرباح الاستثنائية وقوانين العمال وقانون العلامات التجارية وغيرها .

ومما يتمشى فى مصر مع مبادئ الاشتراكية تأميم المشروعات ذات المنفعة العامة مثل مشروعات المواصلات ، والتلغرافات ، والتليفونات ، ومياه الشرب ، والإنارة الكهربية ، وغيرها . و بذلك امتنع فى مصر الاحتكار فى أهم ما يحتاج إليه الشعب من منافع ضرورية .

ومع أن مصر تشجع الحرية التجارية والصناعية فإنها تعمل فى نفس الوقت على تحديد أسعار كثير من السلع تحديداً إجباريا لحماية الشعب من استغلال التجار والصناع والزراع .

ولعل أهم ما هو ظاهر من الاتجاهات الحديثة فى مصر هو تشجيع العمل بالنظام التعاونى وما تبذله الدولة من جهود ومساعدات فى هذا الميدان . فنحن نرى أن الجمعيات التعاونية قد أخذت تنمو فى العشرين سنة الأخيرة وانتشرت فى معظم جهات الجمهورية . وهناك جمعيات تعاونية للأدوات المنزلية والمواد الغذائية ، وجمعيات تعاونية لما يلزم المزارعين فى عملهم . ولقد ظهرت أخيراً ، ولا سيما فى المدن الكبرى ، جمعيات تعاونية لبناء المساكن كى تتيح الفرصة أمام المواطن لامتلاك مسكن يدفع ثمنه على أقساط طويلة الأجل

(ح) النظام السياسى

الفصل الأول

النظام السياسى

سبق أن عرفت أن الإنسان لا تكون له صفة الاجتماعية إلا إذا عاش فى جماعات ، وأن هذه الجماعات تكوّن المجتمع . وعرفت أن للإنسان ميولا ورغبات لا بد من إشباعها ، وأنه يتعامل مع غيره من الناس فتتكون بينه و بينهم علاقات اجتماعية بعضها بسيط و بعضها معقد .

وأنت تعرف أن الإنسان فى حاجة إلى المأكل والملبس والمسكن ، كما أنه فى حاجة إلى الأمن والطمأنينة ، وقد أصبح فى المجتمعات الراقية فى حاجة إلى كماليات مختلفة حتى أن الكثير مما كان يعد كماليا فى الماضى أصبح فى الوقت الحاضر ضروريا فى بعض المجتمعات الراقية فيجتهد الإنسان فى الحصول عليه . ولا شك فى أن كل ذلك يحتاج إلى تنظيم وتعاون . فلكى يحقق الإنسان هذا و يعيش فى وئام وصفاء ، لا بد من تنظيم سلوكه العام وسلوكه الخاص ، و بعبارة أخرى لا بد من تنظيم علاقاته مع الناس ، وتنظيم طرق إشباع رغباته وميوله وتوجيهها والإشراف عليها .

ففى الجماعات البدائية والشعوب المتمدينة على السواء ، تقوم الأسرة بتنظيم سلوك الأطفال وتوجيهه والإشراف عليه . وفى حالة الشعوب المتمدينة تتعاون المدرسة بعد ذلك مع الأسرة فى هذا الشأن . و إذا كبر الأفراد واندمجوا فى حياة مجتمعهم فإن المجتمع يقوم بضبط سلوكهم عن طريق العرف السائد فيه ، والتقاليد الشائعة بين أفراده ، والمعتقدات التى يعتنقونها ، والدين الذى يتبعونه ، وما ينتشر بينهم من معايير أخلاقية وجمالية . و إذا خرج الفرد على هذه النظم حاسبه أفراد المجتمع على ذلك .

قيمة النظام السياسى :

لقد وجدت الجماعات المختلفة المتأخرة فيها والمتمدينة، أنه لا بد من وجود من ينظم علاقات أفرادها ، ويضبطها ، ويمنع بغى المعتدين ، ويوقف من يرغبون فى استغلال المستضعفين . وبعبارة أخرى ، لمست الجماعات ضرورة وجود من يقوم بوظيفة الحكم بين الناس وتنظيم علاقاتهم بغيرهم من المجتمعات الأخرى ، فكان ما يعرف بنظام الحكم ، أى النظام السياسى .

وحين يقوم نظام الحكم بهذا الشكل فإنه يحافظ على كيان المجتمع ، ويعمل على استتباب الأمن فيه ، وعلى وجود التعاون والعدل بين الناس ، كما يحميه من الإغارات التى قد يتعرض لها ، أو على الأقل يجنبه التعرض لمثل هذه الإغارات .

تعديل النظم السياسية أو تغييرها :

وجدت النظم السياسية من قديم الزمان فى كل المجتمعات ، ومع ذلك لم تسلم المجتمعات من وجود الإجرام ، والاعتداء على حقوق الغير ، والتقصير فى القيام بالواجبات أو التراخى فيها على الأقل . ولم تسلم بعض المجتمعات أيضا من وجود طبقات فيها تستمتع بالخيرات وتدعى امتيازات خاصة بها دون سواها من الناس . كما أن الحروب قد نشبت من وقت إلى آخر نتيجة توتر العلاقات بين المجتمعات المختلفة .

وتاريخ العالم حافل بمحاولات كثيرة من جانب الإنسان لعلاج هذه الحالة بتعديل النظم السياسة القائمة ، أو وضع نظم سياسية أخرى تهدف إلى جعل العلاقات البشرية على نحو يرضاه أفراد المجتمع ويسعدون به ، فنشرت كتب وبحوث ، ونادى كثير من المفكرين بآراء مختلفة فى هذا الشأن ، وقامت ثورات وحروب

داخلية فى كثير من المجتمعات ، وعقدت مؤتمرات قومية وعالمية لتقرير النظم الصالحة للعصر والأحوال السائدة بحيث تشبع حاجات الناس . وإنا لنستطيع أن نقول إن كل نظام سياسى قائم فى العالم المتمدين اليوم له تاريخ من التطورات والتعديلات التى حدثت لعلاج عيوب ظهرت فى الماضى أو لاستكمال نقص شعر به الناس فى نظامهم السابق .

الاعلان العالمى لحقوق الإنسان :

ومن أبرز المجهودات السلمية الحديثة التى قام بها الإنسان لتنظيم علاقاته المختلفة وتنسيق أوضاعه السياسية ذلك « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » الذى أصدرته هيئة الأمم المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ ليكون « مثلا أعلى للجميع تسعى شعوب الأرض وأممها نحو بلوغه » . وقد أفادت منه فعلا دساتير كثير من الحكومات وقوانينها وكثير من الاتفاقات الدولية « وأصبح إلى جانب هذا مصدرا للقوانين فى محكمة العدل الدولية » . ويحث هذا الاعلان شعوب الأرض على نشر العدل والمساواة والتآخى والسعادة بين الأفراد والجماعات والتخلص مما قد يكون موجودا عن الماضى من مظالم أو اضطهادات .

وهذه المحاولات والتعديلات أو التغييرات فى النظم السياسية قد اختلفت من مجتمع إلى آخر لأسباب كثيرة ستدرسها فيما يلى .

العوامل التى تؤثر فى النظام السياسى

يختلف النظام السياسى من مجتمع إلى آخر حتى إننا لا نغالى إذا قلنا إنك تكاد لا تجد فى العالم نظامين سياسيين متماثلين تماما . وحتى لو وجدت مجتمعين يبدو نظامهما السياسى واحدا ، فإنك ستجد من غير شك عدة اختلافات فى التفاصيل . ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة تؤثر فى النظام السياسى وتوجهه اتجاهات خاصة ، ومن بين هذه العوامل :

١ — الظروف التى وجد فيها المجتمع فى الماضى والظروف الحالية التى يوجد فيها فى الوقت الحاضر .

٢ — مقدار اتصال المجتمع بغيره من المجتمعات ، ومدى تأثره بهذا الاتصال .

٣ — الأهداف العامة التى يرمى المجتمع إلى تحقيقها .

٤ — وجود شخصية قوية فى المجتمع تمكنت من أن تبسط نفوذها على أفراده ، وتوجههم وجهات معينة .

٥ — العرف السائد فى المجتمع ، وتقاليده ، ومعتقدات أفراده ، وقيمهم ، ومعاييرهم الأخلاقية ، ومثلهم العليا ، ومبلغ تمسكهم بهذه النواحى جميعها .

٦ — كتابات بعض المفكرين ، ومبلغ استجابة الناس لآرائهم .

٧ — غزو أجنبى يفرض فيه الفاتح نظاما خاصا .

٨ — التغير الطبيعى فى المجتمع . وقد عرفت أن المجتمع ينمو ويتغير . وكلما كان المجتمع متمديناً راقياً زاد النظام السياسى فيه تعقيداً .

٩ — الثورات التى تقوم فى المجتمع فتهزه هزاً عنيفاً ، وتقلب نظامه إلى نظام آخر ، أو تغيره تغييراً كبيراً .

أنواع النظام السياسى

مهما اختلفت النظم السياسية فى المجتمعات فإننا نستطيع أن نجمعها فى نوعين رئيسيين هما :

(ا) نظام سياسى بسيط .

(ب) نظام سياسى مركب .

(ا) النظام السياسى البسيط

يوجد النظام السياسى البسيط فى القبيلة التى يحكمها شيخها أو رئيسها ، بأن تتركز فى يده السلطتان القضائية والتنفيذية . وقد يستعين ببعض المسنين فى قبيلته ممن يختارهم هو للمشورة ، ولا سيما فى إصدار الأحكام على الأفراد المذنبين . ولا يكون أساس ذلك قانوناً موضوعاً ، وإنما يكون الأساس العادات والعرف والتقاليد والقيم الشائعة ، واحترام أفراد القبيلة للكبار فى السن ومايبدونه من آراء وما يصدرونه من أحكام . ويقوم شيخ القبيلة وحده (أو مع معاونيه من المسنين) بتحديد علاقات قبيلته بغيرها من القبائل أو الجماعات .

(ب) النظام السياسى المركب

يوجد هذا النظام فى الدول المتمدينة فى الوقت الحاضر . ففى هذه الدول أصبحت للسلطة الحاكمة أعمال ضخمة ، وصارت عليها واجبات متنوعة نحو الأفراد والجماعات والمجتمع بوجه عام . كما أصبحت لها حقـــوق كثيرة متنوعة كذلك عند الأفراد والجماعات . ومما أدى إلى هذه الحالة :

١ — أن الحياة الاجتماعية فى الوقت الحاضر معقدة متشابكة الاتجاهات وتتطلب تنظيما و إشرافا دقيقين .

٢ — أن مستوى ثقافة السكان فى المجتمعات المتمدينة ومستوى معيشتهم ارتفعا كثيراً ، فأصبحت لهؤلاء السكان حاجات ومطالب متعـــددة ومتنوعة ، وتعاونوا فى إشباع هذه الحاجات والمطالب . وقد نشأت بينهم هيئات مختلفة تسهم فى هذا النشاط . وكان لا بد لهذا كله من تنظيم وتشريع و إشراف .

٣ — ان المواصلات الحديثة السريعة قد زادت من اتصال الناس بعضهم ببعض واجتماعهم و إنتاجهم واستهلاكهم ، فتطلب هذا بدوره عدة تنظيمات حكومية وعدة تشريعات ، كما تطلب أيضاً إشرافاً مختلف الصور والألوان .

٤ — أن المواصلات السريعة الحديثة أيضاً قد زادت من اتصال كل قطر بغيره من الأقطار ، فنما التعاون بينها وتعددت صوره وأصبح تعاوناً إقتصادياً وثقافياً وسياسياً ، وأصبح على الحكومات أن تبذل جانباً كبيراً من عنايتها فى الإشراف على هذا الاتصال والتعاون وتوجيهـه التوجيه السليم الذى يتمشى مع سعادة الشعب وحياته حياة كريمة .

وإذا قمت بتحليل أى نظام سياسى مركب فإنك من غير شك تجده متأثراً بالعوامل التى ذكرناها من قبل (بعضها أو جميعها) وهى العوامل التى تؤثر فى النظام السياسى عامة . ومن أجل هـذا اختلفت تفاصيل النظام السياسى المركب باختلاف المجتمعات .

ونستطيع أن نقسم النظام السياسى إلى نوعين آخرين . فمهما اختلفت صور النظام السياسى فإننا يمكن أن نجمعها فى نوعين رئيسيين هما :

(ا) النظام الديموقراطى .

(ب) النظام الدكتاتورى .

الفصل الثانى

الديموقراطية والدكتاتورية

الديموقراطية

ليست الديموقراطية نظاما حديثا ، وإنما يرجع الكثير من عناصرها إلى العصور اليونانية القديمة . ولسنا هنا فى مجال تتبع تاريخها ، وإنما يكفى أن ندرسها فى صورها الحاضرة . فما طبيعتها وما أهم ما تشتمل عليه ؟

إن الديموقراطية ليست نظام حكم فحسب ، وليست تنظيما اجتماعيا فقط ، وليست مقصورة على مثل عليا لحياة المجتمع . إنها تشتمل على كل هذا ، فهى طريقة حياة اجتماعية وفردية يتحرر فيها الإنسان من أى ضغط خارجى يحول بينه و بين حرية تفكيره ، واستخدام ذكائه استخداما سليما .

وأما المظهر السياسى أو الحكومى فى الديموقراطية فهو وسيلة لتحقيق أهداف هامة فى العلاقات البشرية . ويتلخص هذا المظهر السياسى فى قيام « حكومة الشعب بالشعب وللشعب » ، لتعمل على عدم وجود ضغط خارجى على الجماعة وتهيئ الفرص الكثيرة لحياة كريمة سعيدة .

الأسس التى تقوم عليها الديموقراطية :

إن الديموقراطية التى وصفناها تقوم على أسس خاصة يمكن أن نلخصها فيما يلى :

١ — إن كل إنسان له كرامته ، وهذه الكرامة يجب أن تحترم .

٢ — إن كل فرد حر فى سلوكه ما لم يضر غيره .

٣ — إن لكل إنسان قدرات واستطاعات كفرد وكعضو فى جماعة . فينبغى أن يعطى، من الفرص ما يمكنه من استغلال هذه القدرات والاستطاعات لصالحه وصالح الجماعة .

٤ — إنه مهما اختلفت درجات الذكاء عند الناس فإن كل فرد يستطيع القيام بشىء لصالح الجماعة على قدر استطاعته .

٥ — إن كل فرد يجب أن يعطى من الفرص ما يسمح له بالابتكار و إظهار مواهبه واستغلالها .

٦ — إن توجيه أى عمل والإشراف عليه ينبغى أن يكون نابعا من ظروف العمل نفسه .

٧ — إن كل فرد يعمل مع غيره من الأفراد على أساس أهداف مشتركة ، ويحكم على كل فرد على أساس درجة إسهامه فى الوصول إلى هذه الأهداف .

٨ — إن كل جماعة تعمل مع غيرها من الجماعات على أساس حاجات مشتركة ، وعلى أساس ما يشبع هذه الحاجات أيضا على أحسن وجه مستطاع .

٩ — إن أى تغيير يراد إحداثه ينبغي أن يكون بعد دراسة الموقف ومعرفة ما هو معقول ومقبول فى ضوء كل الظروف .

١٠ — إن الإقناع هو خير وسيلة لتحسين العلاقات ، وأحسن أساس للتحكم المستنير .

١١ — إن المعرفة وسيلة لإسعاد الناس ، فيجب أن تمنح الفرص لجميع الأفراد كى يتعلموا فى حدود استطاعاتهم وميولهم .

١٢ — يجب أن يحب الإنسان لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن يكره له ما يكرهه لنفسه .

الديموقراطية فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان[١] :

عرفت أهم الأسس التى تبنى عليها الديموقراطية. و إذا درست « الإعلان العالمى لحقوق الإنسان » فإنك تجده يتمشى كثيراً مع هذه الأسس ، فقد جاء فى ديباجته وفى أوله ما يأتى :

« بما أن الاعتراف بكرامة بنى الإنسان المتأصلة و بحقوقهم المتكافئة الثابتة هو أساس الحرية والعدالة والسلام فى العالم ، . . . .

. . . .

« و بما أن شعوب الأمم المتحدة قد أكدت من جديد فى ميثاقها إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية و بكرامة الفرد وقيمته و بحقوق الرجال والنساء المتساوية ، واعتزمت العمل على زيادة التقدم الاجتماعى ورفع مستوى المعيشة فى ظل حرية شاملة ،

« و بما أن الدول الأعضاء قد أخذت على نفسها عهدا أن تكفل بالتعاون مع هيئة الأمم المتحدة احترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية احتراما عالميا واقعيا ،

« و بما أنه من الأمور البالغة الأهمية أن يفهم الناس جميعا هذه الحقوق والحريات كى يتيسر الوفاء بهذا العهد وفاء كاملا ،

(١) يحسن بالقارئ أن يدرس الترجمة الكاملة لهذا الاعلان التى قامت بها وزارة التربية والتعليم المصرية .

« لذلك تعلن الجمعية العامة هذا الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، ليكون مثلا أعلى للجميع تسعى شعوب الأرض وأممها نحو بلوغه ، وعلى هدى هذا الإعلان و بوحى منه ينبغى لكل فرد ولكل عضو فى المجتمع أن يعمل (بوسائل التربية والتعليم) على زيادة احترام هذه الحقوق والحريات ، وأن يستعين بالتدابير التقدمية (القومية منها والدولية) ليكفل الاعتراف بهذه الحقوق والحريات والمحافظة عليها محافظة فعالة سواء بين شعوب الدول الأعضاء نفسها أو بين شعوب البلاد الواقعة تحت حكمها » .

وفيما يلى بعض ما جاء فى مواد هذا الإعلان من نصوص هى فى الواقع من صميم الديموقراطية :

« المادة ١ : يولد الناس جميعاً أحرارا متساوين فى الكرامة والحقوق ، وكلهم قد وهب الرشد والضمير ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضا بروح الإخاء .

« المادة ٢ : (١) يحق لكل فرد أن يستمتع بجميع الحقوق والحريات المنصوص عليها فى هذا الإعلان دون تفرقة أو تمييز من أى نوع ، كالتمييز بسبب السلالة أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأى السياسى أو غيره من الآراء أو الأصل القومى أو الاجتماعى أو الثروة أو المولد أو غير ذلك من الأوضاع .

« المادة ٣ : لكل إنسان الحق فى الحياة والحرية والأمن الشخصى .

« المادة ٧ : كل الناس سواء أمام القانون ومن حقهم جميعاً أن يحميهم القانون دون تمييز بينهم ، وكل منهم ذو حق متساو فى أن يحميه القانون من أى تمييز يراد به خرق هذا الإعلان ومن أى تحريض على إثارة مثل هذا التمييز .

« المادة ٢١ : (١) لكل إنسان الحق فى الاشتراك فى حكومة بلاده سواء أكان ذلك مباشرة أم بواسطة ممثلين منتخبين انتخابا حرا .

(ب) لجميع الأفراد على السواء. الحق فى الالتحاق بالوظائف العـــــامة فى بلادهم .

(حـ) إرادة الشعب هى أساس سلطة الحكومة ويعبر الشعب عن هذه الإرادة بانتخابات دورية حرة تجرى على أساس التصويت ويشترك فيه الجميع على قدم المساواة بطريقة الاقتراع السرى أو ما يعادلها من طرق التصويت الحر .

« المادة ٢٢ : لكل فرد باعتباره عضوا فى المجتمع الحق فى الأمن الاجتماعى وفى نيل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى تقتضيها كرامته ويتطلبها نمو شخصيته نموا حرا ، وذلك بفضل الجهود القومية والتعاون الدولى ووفق نظام كل دولة ومواردها .

« المادة ٢٣ : (١) لكل إنسان حق العمل وحرية اختيـاره وله حق العمل فى ظروف عادلة ملائمة وحق الحماية من التعطل .

(ب) لجميع الأفراد الحق فى أن يتقاضوا أجورا متكافئة عن الأعمال المتكافئة دون أى تمييز بينهم .

(حـ) لكل من يعمل الحق فى أن يتقاضى عن عمله أجرا عادلا مناسبا يكفل له ولأسرته حياة كريمة ويضاف إلى هذا الأجر غيره من وسائل الحماية الاجتماعية إذا اقتضى الأمر .

« المادة ٢٥ : (١) لكل إنسان الحق فى مستوى للمعيشة ملائم لصحته ورفاهيته ولصحة أسرته ورفاهيتها ، ويتضمن هذا حقه فى المأكل والملبس والمسكن وفى الرعاية الطبية والخدمات الاجتماعية الضرورية ، وفى الأمن من التعطل أو المرض أو العجز أو الترمل أو الشيخوخة أو غير ذلك من حالات العوز الناشئة عن ظروف لا قبل له بردها .

« المادة ٢٦ : (١) لكل إنسان الحق فى التعليم . ويجب أن يكون التعليم مجانا فى مراحله الأولى والأساسية على الأقل ، وأن يكون التعليم الأولى إلزاميا والتعليم الفنى والمهنى فى متناول الجميع ، وأن يتاح التعليم العالى للجميع على السواء على أساس الجدارة والكفاية .

(ب) يجب أن يوجه التعليم نحو تنمية شخصية الإنسان تنمية كاملة وزيادة احترام الحقوق الإنسانية والحريات الأساسية ، ويجب أن يدعم التعليم التفاهم والتسامح الصداقة بين جميع الشعوب والأجناس والأديان ، وأن يؤازر الجهود التى تبذلها هيئة الأمم المتحدة فى سبيل حفظ السلام .

« المادة ٢٧ : (١) لكل إنسان الحق فى الاشتراك بمحض إرادته فى حياة المجتمع الثقافية وفى الاستمتاع بالفنون والمساهمة فى التقدم العلمى وما يجلب من منافع .

(ب) لكل إنسان الحق فى حماية مصالحه الأدبية والمادية الناشئة عن أى إنتاج أنتجه فى ميدان العلوم أو الآداب أو الفنون .

« المادة ٢٩ : (١) على كل إنسان واجبات نحو المجتمع الذى يهيئ لشخصيته مجالا للنمو الحر الكافى .

(ب) لا يخضع الإنسان فى مباشرة حقوقه وحرياته إلا للقيود التى رضها القانون لضمان الاعتراف الواجب بحقوق الغير وحرياتهم واحترامهم أو قصد بها مواجهة المطالب العادلة التى تقتضيها الأخلاق والنظام العام ورفاهية الناس فى مجتمع ديموقراطى » .

النقد الذى يوجه إلى الديموقراطية :

من أهم وجوه النقد التى توجه إلى الديمقراطية أنها بطيئة الإجراءات فى الناحية التنفيذية ، ولكن هذا البطء مرغوب فيه ، لأنه يتضمن المناقشة والبحث وتبادل

الآراء قبل الوصول إلى القرار النهائى . ومع ذلك ففى الحالات الطارئة التى تستدعى حلولا سريعة وتنفيذا عاجلا ، كما أشرنا ، تبيح معظم الديموقراطيات اتخاذ إجراءات استثنائية سريعة .

ومن النقد الذى يوجه إلى الديموقراطية أيضا ، أن كثرة الانتخابات العامة ، وتغيير المراكز الرئيسية من شأنه أن يعرقل استمرار الاتجاه نحو هدف معين ، ويعيق وضع سياسة للمستقبل طويلة الأمد . وهذه الناحية الأخيرة كثيرا ما يصبح لها أثر غير سليم فى السياسة الخارجية . ولكن أصحاب هذا الرأى قد نسوا أثر الاستمرار فى الاتجاه نحو هدف غير سليم ونتائج الاستمرار فى سياسة غير سليمة ، كما نسوا ما ينجم عن استمرار وجود أشخاص متهورين فى مركز رئيسى فى الدولة . ونسى أصحاب هذا النقد أيضا وجود اللجان والمجالس ، وحرية الرأى التى توجه الطريق وتنيره فى كثير من الحالات .

الدكتاتورية

إن الدكتاتورية بدورها ليست نظاما حديثا بل ترجع إلى عصور قديمة . فيحدثنا التاريخ عن الحكم الملكى الوراثى المستبد فى أقطار الشرق القديم ، وعن الاعتقاد فى أن الملك كان يستمد سلطته من الآلهة . بل إن التاريخ يحدثنا عن تأليه الملوك وطاعتهم طاعة عمياء . وليس هنا مجال تتبع الدكتاتورية فى التاريخ وإنما يكفى أن نعرف طبيعتها أو مدلولها فى الوقت الحاضر وذلك من معرفة الفرق بينها وبين الديموقراطية .

الفرق بين الديموقراطية والدكتاتورية :

هناك فروق جوهرية بين النظام الديموقرطى والنظام الدكتاتورى . وأهم هذه الفروق أن رئيس الدولة الدكتاتورية (ويسمى الدكتاتور) يكون حاكما يتمتع بسلطات

مطلقة تكاد تكون غير مقيدة بقيود . وفى ظل النظام الدكتاتورى عادة تتدخل الدولة فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية فى حياة الناس بحيث لا تكون للفرد فى الغالب حرية العمل والإنتاج وفق رغباته وحاجاته ، بل تكون حريته مقيدة بقيود ثقيلة .

ومعنى ذلك أيضا أن الدكتاتورية بدورها طريقة حياة ، ويكون المظهر السياسى أو الحكومى فيها وسيلة لتحقيق أهداف هامة فى العلاقات البشرية . وفى الدكتاتورية ينزل الناس عن حقوقهم إلى شخص يتولى السلطة ولا يسمح بمعارضته ، بل إنه فى العادة لا يجرؤ أحد على هذه المعارضة .

أثر الدكتاتورية :

حين تدرس تاريخ العالم منذ القدم تجد حكاما كثيرين من هذا النوع قد حكموا الشعوب . وقد اختلف هؤلاء الحكام بعضهم بعض فيما قاموا به لبلادهم . ونستطيع أن نقول :

١ — إن بعض هؤلاء الحكام قد أساءوا إلى وطنهم كثيرا ، وبخاصة من فجر منهم وتجبر وطغى وانغمس فى المفاسد وارتكب الآثام وسار وراء شهواته وملذاته ،

٢ — إن بعض هؤلاء الحكام قد أفادوا وطنهم وجنبوه محنا كثيرة . ومن هؤلاء من تولى الحكم فى أوقات الحروب أو الأزمات الاقتصادية أو السياسية أو المشكلات الاجتماعية القومية .

ولا يخفى أن الدول الديموقراطية نفسها ، فى فترات من تاريخها ، تحتاج إلى درجة من الحكم الدكتاتورى ، أو إلى ظل منه على الأقل ، كى تستطيع أن تبت فى الأمور بسرعة ، كما يحدث عادة وقت الحروب وحين تنتشر المفاسد أو الاضطرابات وتهدد المجتمع بالتفكك والانهيار .

الفصل الثالث

(ا) العوامل التى تساعد على قيام الديموقراطية

ذكرنا الأسس التى تبنى عليها الديموقراطية ، ولكن هل يمكن أن نطبق جميع هذه الأسس فى كل مجتمع من المجتمعات ؟

الواقع أن العبرة ليست فى التطبيق ، وإنما فى مدى نجاح الديموقراطية فى المجتمع الذى تطبق مبادئها أو أسسها فيه . وعلى ذلك يجب أن تتوافر فى المجتمع عوامل تساعد أولا على قيام الديموقراطية ثم تساعد بالتالى على نجاحها . وأهم هذه العوامل :

١ — نشر التعليم بين أفراد الشعب . فكلما تعلم الناس نظروا إلى الحياة نظرة أوسع ، وأمكنهم أن يدركوا قيمة الحكم الذاتى السليم ، واستطاعوا أيضاً أن يدركوا قيمة العلاقات البشرية المتبادلة بين الفرد والجماعة . والواقع أن قيام الديموقراطية الصحيحة ونجاحها يصبحان أمراً مستحيلا إذا كانت نسبة الجهل بين الناس كبيرة ، وكان الناس لايكترثون بما يحدث فى الحياة العامة .

٢ — تنوير الناس بالوسائل المختلفة من إذاعة ، وصحافة ، وأفلام سينمائية ، وتمثيليات ، وأحاديث عامة ، وندوات ، ومحاضرات . فكل ذلك يجعل الناس يلمون بنظم الدول المختلفة ، ويوازنون بين هذه النظم ، ويدركون مافى الديموقراطية من قيم .

والواقع أن نجاح الديموقراطية فى المجتمعات التى تمارسها يقاس بمبلغ ثقافة هذه المجتمعات واستنارة أفرادها .

٣ — أن تصبح عند الناس فكرة واضحة عن حقوقهم وواجباتهم وإيمان عميق بما لهم من حقوق لا تتعارض مع حقوق الغير أو مع الصالح العام ، وكذلك إيمان عميق بضرورة القيام بالواجبات لأن نيل الحقوق يرتبط ارتباطا كبيرا بالقيام بالواجبات ، فكل حق يقابله واجب . وخلاصة ذلك أن يكون عند الناس وعى سياسى .

وهنا يبرز دور كل من الأسرة والمدرسة ودور وسائل تنوير الشعب التى ذكرناها .

وأما فى الأسرة والمدرسة ، فيجب أن يكون هناك تدريب عملى ليعرف كل فرد حقوقه ويتدرب على الطرق السليمة التى يتبعها لينال هذه الحقوق ، وليعرف كل فرد أيضاً واجباته ويتدرب على الطرق الصحيحة التى ينبغى أن يتبعها ليقوم بهذه الواجبات .

والأسرة أهم مدرسة لهذا التدريب الديموقراطى ، ولذلك يجب أن يسود فيها جو من العلاقات والمبادئ الديموقراطية السليمة ، فلا يطغى كبير الأسرة ، ولا يتعالى الأب على أبنائه ويحرمهم من حقوقهم المعقولة السليمة . بل ينبغى أن يشعر الأبناء بكرامتهم ، وتعطى لهم الفرص التى تسمح بإظهار فرديتهم . ويجب أن يحترم الكبار فى الأسرة آراء الأبناء الأصغر سناً ويوجهوا هذه الآراء الاتجاه السليم عن طريق المناقشة والإقناع لا عن طريق التسفيه أو المنع من الكلام .

وأما المدرسة فينبغى أن تدرب تلاميذها أيضاً على الحياة الديموقراطية وذلك باتخاذ المبادئ الديموقراطية أساساً لتكوين الأسر والجماعات المدرسية ، وأساسا للعلاقات بين المدرسين والتلاميذ وبينهم وبين إدارة المدرسة ، وأساساً لإقامة الحفلات المدرسية وتنظيمها ، وإعداد الرحلات والزيارات وتنفيذها ، وما إلى ذلك

من وجوه النشاط التى يمكن أن تكون ميداناً عظيما لتدريب التلاميذ على الحياة أو العلاقات الديموقراطية .

ففى وجوه النشاط المدرسى المختلفة يكون التلميذ عضوا فى جماعة تعقد عدة اجتماعات تدور فيها مناقشات تحت إشراف المدرس . وفى أثناء هـذه المناقشات يحترم كل واحد آراء غيره وشخصيته ، حتى ولو كان ينقد هذه الآراء أو يعدل فيها . وفى هذه الاجتماعات أيضاً تتخذ قرارات يحترمها الجميع ، وتقترح مشروعات تناقش مناقشة حرة ، ثم تتكون لجان من التلاميذ تقوم بإعداد برامج هذه المشروعات وتعرضها على الجماعة الكبرى لمناقشتها أيضاً واتخاذ قرارات بشأنها . وقد تعقد اجتماعات خاصة تحاسب فيها الجماعة أى عضو مخالف وتوجهه . وبذلك كله يتدرب التلاميذ تدريبا عمليا على النظم الديموقراطية ومبادئها السليمة .

٤ — أن يتكون عند الناس إحساس بالمسئولية العامة والصالح العام وروح الجماعة ، أى يتكون عندهم وعى قومى . ومما يساعد على ذلك وسائل التنوير السالفة الذكر . ونجد هنا أيضاً أن مجال الأسرة والمدرسة واسع هام .

والواقع أن تماسك الناس أو اتحادهم من أجل الصالح العام أو من أجل الأهداف العامة أو المشتركة أمر له قيمته فى قيام الديموقراطية ونجاحها .

٥ — نضج الناس سياسياً . وما الوسائل السالفة الذكر إلا عوامل هامة فى تحقيق هذا النضج . وينبغى أن يتدرب الناس على الحكم الذاتى ونظامه وأن يخبروا مزاياه فى الأسرة والمدرسة والجماعات المختلفة التى ينتمون إليها ، فإذا كان الناس لم يتدربوا على ذلك فينبغى أن تهيأ لهم الفرص التى تسمح بهذا التدريب ، وفى خلال ذلك يوجهون توجيهاً يجعلهم يمارسون الحياة الديموقراطية بالتدريج .

٦ — وجود رأى عام مستنير . وهذا العامل مرتبط بالعوامل السابقة ، ولا سيما نشر التعليم ، وهو من غير شك يساعد على تدعيم الديموقراطية فى البلاد وتوجيه الناس والمسئولين وجهات لها قيمتها الديموقراطية .

٨ — العمل على رفع مستوى المعيشة بكافة الوسائل الممكنة . فذلك من شأنه أن يزيد من اعتداد الناس بكرامتهم واستمساكهم بالمبادئ الديموقراطية .

٨ — إزالة الفوارق الاجتماعية الصارخة كإلغاء الألقاب وتوزيع الملكيات توزيعاً يقرب ما بين أفراد الشعب الواحد .

٩ — الكتابات التى يقوم بها قادة الفكر والفلاسفة التى توجه الناس إلى محاسن الديموقراطية ومساوئ غيرها من النظم ، وما يجب أن يعمل من أجل تلك المحاسن لتدعيمها . وكلما كان أسلوب هؤلاء الكتاب سهلا جذاباً متصلا بخبرات الشعب كان أثره أكبر وأعمق .

(ب) الحياة السياسية فى مصر واتجاهاتها الحديثة

لو رجعت إلى تاريخ مصر الحديث لوجدت أن البلاد ، منذ الفتح العثمانى إلى عهد الاحتلال البريطانى ، كانت تحكم فى الواقع حكما يميل كثيراً إلى النظام الدكتاتورى . فعلى الرغم من وجود « الدواوين » و « الجمعيات التشريعية » كانت هناك قوة تطغى على هذه الهيئات فى كثير من الأحيان وتوجه حكم البلاد بما تراه . ودراسة تاريخ مصر الحديث تعرفك أن البلاد ظلت تكافح ضد الاحتلال الأجنبى البغيض ، وبخاصة أن الإنجليز كانوا يتدخلون فى شئونها الداخلية بين حين وآخر .

وإذا رجعت إلى ما جمعته فى دراسة المجتمع المصرى من معلومات عن حالة التعليم فى مصر ، ومدى انتشار الأمية فى البلاد ، فإنك تحكم بأن الجهل ما زال منتشراً بين أغلب المصريين ولاسيما بين سكان الريف ، بل إن سكان الريف ، وهم أغلب المصريين ، تنتشر فيهم الأمية السياسية بمعناها الواسع . وقد أدى كل ذلك إلى تعثر الديموقراطية فى مصر حين أخذت البلاد بفكرتها فى نظام الحكم النيابى ، بل إن المبادىء الديموقراطية قد أسىء استخدامها فى حالات كثيرة . والواقع أن الجهل والأنانية والتحيز قد ساعدت كثيرا على تعثر الديموقراطية فى مصر .

فالشخص الجاهل لا يستطيع أن يحكم على الأشياء أو الظاهرات حكما متزنا سليما ، ولا يستطيع بالتالى أن يشترك بآرائه فى حياة ديموقراطية صحيحة . والشخص الأنانى الذى يفضل مصلحته الشخصية ومصلحة ذويه على مصلحة المجتمع لا تنتظر منه أن يساعد على قيام الديموقراطية بمعناها وأسسها التى ذكرنا . ولا تنتظر أيضاً من الشخص المتحيز أن يحكم أحكاما صحيحة أو ينظر إلى الأوضاع الديموقراطية نظرة سليمة بل لا تنتظر منه أن يسهم فى اتباع المبادىء الديموقراطية كما يجب أن تكون . والشخص الذى يكره طبقة أو جماعة من الناس فى بلده لا تنتظر منه أيضا أن يدرك الأسس الديموقراطية كما ذكرناها ، ولا تنتظر منه أن يسهم فى الحياة الديموقراطية إسهاما سليما .

وسبق أن درست فى التاريخ المقدمات التى أدت إلى قيام ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وعرفت وقائع هذه الثورة ومبادئها ، وأن الجمهورية أعلنت بمصر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ .

وتحاول الحكومة فى الوقت الحاضر معالجة الأسباب التى أدت إلى تعثر الديموقراطية فى البلاد ، فحددت فترة انتقال كى تتمكن فى أثنائها من التمهيد لديموقراطية تسود البلاد على أسس صحيحة . وأخذت البلاد فى استخدام معظم الوسائل التى تساعد على قيام الديموقراطية ونجاحها ، وهى التى ذكرناها فى أول هذا الفصل .

الفهـــــرس

الموضــوع | صفحة

الموضـــوع



دار مصر للطباعة
٣٧ (١)، شارع كامل صدقي ت ٧٥١٤٧

